الفصل الثانى

الإسلام فى أوربا الوسطى

الاسلام والثقافة العربية فى ايطاليا

لم يكن استيلاء العرب والمسلمين على جزيرة كريت وصقلية وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط إلا مرحلة من مراحل الغزو الإسلامى ، تليها مرحلة أخرى لغزو القارة الأوربية من الوسط ومن ثم فقد أتجهت أنظارهم إلى غزو إيطاليا بعد أن استقرت أوضاعهم فى كريت وصقلية وكانت ضرورة أطواء هذه الأرض تحت الرآية الإسلامية بعد أن طويت الأندلس وجنوب فرنسا وسويسر تحت رآيه التوحيد .

وقد أطلق المسلمون على إيطاليا الأرض الكبيرة وقال البلاذرى عنها بالمغرب أرض تعرف بالأرض الكبيرة وبينها وبين برقة خمسة عشر يوماً أو أقل من ذلك أو أكثر قليلا وبها مدينة على شاطىء البحر تدعى بارة وكان أهلها نصارى وليس بروم وهى أرض تقابل صقلية ومدينة بارة التى ذكرها البلاذرى هى قاعدة مقاطعة اسمها بارة وهى على بحر الأدريتايك والإيطاليين يقولون لها بارى .

الاسلام وجهاد بنى الأغلب :

لقد كان لبنى الأغلب حكام تونس شرف الجهاد فى سبيل رفع الراية الإسلامية راية لا إله إلا الله محمد رسول الله خفاقة عالية فوق قلب القارة الأوربية إذا اتجهوا بأنظارهم جنوب البلاد الإيطالية لمهاجمة القارة الأوربية وضمها لدولة الإسلام الكبرى لتصبح القارة الأوربية مثل قارة آسيا وأفريقيا قارة تدين بالإسلام ، وجاء فى كتاب الكامل لإبن الأثير الجزء السابع حوادث عام ٢٢٨هـ أن الفضل بن جعفر الهمذانى سار إلى البحرى ونزل إلى مرسى بحر ميسنى وبث السرايا ففتحوا وغنموا غنائم كثيرة واستأمن إليه أهل نابل وقد تكون هذه أول غزوة إسلامية يصل فيها المسلمون إلى الأرض الإيطالية .

أما عن دور الأغالبه فنجد أن أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله بن الأغلب ، يرسل من صقلية أسطولا قوياً عدة رجاله شدة إيمانهم بالله وبالدين الإسلامى الحنيف وبرغبتهم فى الاستشهاد فى سبيل الله ، والجهاد من أجل نصرة دينه ، وأرسل هذا الأمير الأسطول الاسلامى الأغلبى إلى جنوب إيطاليا إلى قلوريه وهزم الأسطول الاسلامى ما قابله من أسطول النصارى ونزل الجند الاسلامى فى جنوب إيطاليا حيث سجل الجندى المسلم صفحة من صفحات الكفاح الاسلامى على الأرض الأوربية ومن ثم فقد كان المسلمون دائماً يريدون انتهاز الفرص للوثوب على الأرض الايطالية بقوة عسكرية تمكنهم من فتحها والاستقرار بها ونشر أنوار الرسالة الاسلامية السمحة على أنقاض ظلمات الجهل الأوربى الذى يسود إيطاليا وباقى أجزاء أوربا وقد سنحت الفرصة للمسلمين للتدخل فى إيطاليا إذ قام صراع بين إمارة نابل وإمارة بيفان الايطالية وكانت هذه الامارة قد هزمت نابلى فأرسل ملكها رسولا من قبله إلى بالرمو العاصمة الاسلامية لصقلية يطلب من أميرها أبو الأغلب إبراهيم مساعدته ضد إمارة بيفان وأميرها الذى هزمهم واقتطع أجزاء من إمارتهم فأرسل ابن الأغلب فرقة من جنده الاسلامى القوى ، اشتركت فى القتال مع جند نابل ضد الأمير المباردى وبذلك استطاعت نابلى أن تتغلب على إمارة بيفان ، وبذلك رضخت هذه الامارة لشروط الصلح بفضل مساعده جند المسلمين ، وبعد أن رأى أمراء نابلى ما للمسلمين من تقدم فى ميدان العلم والعمران والحضارة ، علاوة على ما لهم من قوة عسكرية وميزة قتالية فى ميدان القتال الحرب وبذلك انفتحت أبواب إيطاليا وخاصة نابلى أمام تدخل المسلمين وكان هؤلاء يحملون معهم رايات المدنية والعلم والحضارة والفنون والتقدم والرقى ، وعندئذ رأى حكام هذه الامارة ضرورة عقد تحالف مع حكام صقلية الاسلامية وكان عقد هذه الاتفاقية عام ٨٣٥ هـ وظلت هذه الاتفاقية سارية المفعول ومعمول بها حتى عام ٩٠٠ م، وكان من أثر هذه الاتفاقية أن لقيت إيطاليا صعوبات داخلية عظيمة وذلك بعد أن أتاحت للعرب والمسلمين فرصة التدخل فى شئون الامارات الايطالية الجنوبية وخاصة نابلى .

بل الأكثر من ذلك فإن مسلمى جزيرة صقلية قاموا بغزو إيطاليا من جهة الشرق وذلك عام ٨٣٨م عندما قاموا بالسيطرة على « برنديزى » فحاول أمير تلك الامارة

أن يدفع المد الاسلامى عنها ولكنه باء بالفشل، وبلغ المسلمون أنه بعد هروبه من بلاده أنه يعد حملة كبيرة لاستعادة بلاده بمساعدة إمارات الشمال الايطالية فقام المسلمون بإحراق «برنديزى» إنتقاماً من أميرها الذى يريد أن يكتل المسيحية فى محاربة الاسلام، وعادوا بسفنهم إلى صقلية دون أن تلحق بهم أية خسائر فى الأرواح أو العتاد أو يخسروا سفينة واحدة من أسطولهم وذلك لأنهم خرجوا للجهاد فى سبيل الله وفى سبيل نشر الراية الاسلامية السمحة .

ويشير ابن الأثير أيضاً فى كتاب الكامل عن حوادث ٢٢٥ هـ فيقول أن أسطول المسلمين سار إلى قلوريه والمقصود بقلوريه ذلك الجزء الجنوبى الإيطالى الذى كان يشمل إمارات طارنت وبرنديزى ففتحهما ولكن أسطول القسطنطينية تحرك للدفاع عن الجنوب الايطالى فلاقاه الأسطول الاسلامى فهزمه شر هزيمة بعد قتال عنيف وعاد الأسطول الرومى إلى القسطنطينية مهزوماً ومحطماً وكان ذلك فتحاً عظيماً للمسلمين وبداية للمد الاسلامى على إيطاليا .

الصراع بين المسلمين والروم :

ولكن هذه الخسائر الفادحة فى الأرواح والسفن والمعدات حركت القسطنطينية لبذل جهد حربى بحرى جديد فأرسلت أسطولا كبيراً إلى الشرق إلى سرقوسه عدته ٣٠٠ سفينة حربية مجهزه بأحسن أجهزة العصر الحديثة فى ذلك الوقت ويمر الأسطول بمضيق مسينا وهو المضيق الذى يفصل بين جنوب إيطاليا من الجهة الغربية وبين جزيرة صقلية والتقى الأسطول الاسلامى الذى يرفع راية لا إله إلا الله، محمد رسول الله بالأسطول الرومى تجاه الساحل الشمالى لصقلية ودارت معركة بحرية عنيفة أنتصر فيها العرب والمسلمون انتصاراً حاسماً أيضاً إذ فقد البيزنطيون أكثر من مائة سفينة حربية فى هذه المعركة التى سجلت نصراً بحرياً جديداً للأسطول الاسلامى وحاقت بالروم أبشع هزيمة بحرية حاقت بهم بعد هزيمة عام ٨٤٠ م .

وبعد تلك الهزيمة الساحقة بدأ الأمر وكأن مصير إيطاليا كلها على وشك الانتقال إلى أيدى العرب، وأفزع هذا العمل الاسلامى حاكم إمارات اللومبارد

الشمالية فقرر أن يقوم بعمل حربي ضد العرب ولكنه لم يضف نجاحاً يعتز به وكيف يستطيع وهو لا يملك أسطولا يطرد به العرب والمسلمين من مواقعهم الحصينة على الشواطىء الإيطالية والتى من هذه الشواطىء يتوغل المسلمون فى غاراتهم داخل البلاد الإيطالية ، وخاف البنادقة من الوجود الإسلامى فى جنوب إيطاليا على تجارتهم ودفعهم إمبراطور الروم إلى دخول الحرب ضد العرب ، فجهزوا أسطولا مؤلفا من ستين سفينة حربية وأقلع هذا الأسطول إلى صقلية قاصداً الانتقام من المسلمين ، بعد أن أحرز أسطولهم نجاحاً عظيما فى البحر المتوسط والتقى الأسطول الإسلامى بهذه السفن التى حشدتها البندقية ، بعد أن غرر بهم إمبراطور الروم أمام طارنت ودارت معركة بحرية عنيفة هلك فيها معظم البنادقة وسفنهم وأسر من ظل حيا منهم وتقدم المسلمون بأسطولهم إلى الجزء الشمالى من بحر الأدرياتيك نحو دلماسيا ، وأحرقوا مدينة « أوسروا » فى جزيرة كرمو واجتازوا البحر وأسروا أناساً كثيرين من أنكونا وتعزو المراجع العربية إلى أن من أسباب انتصار المسلمين على البنادقة هو ذلك التضامن القوى الذى ظهر فى تعاون أسطول جزيرة كريت مع أسطول صقلية فى تلك المعركة التى تجلت فيها أسمى معانى الترابط الإسلامى .

ولم يكتفى المسلمون بما بلغوة من قوة ولا بما حازوه من مجد دينى وسياسى فى عالم البحر المتوسط ، بل اعتبروا أنفسهم سادة هذه البلاد وأصحاب النفوذ الفعلى بها ، واستطاعوا خلال القرن العاشر الميلادى أن يهددوا تورينو ، وينشروا فى « مونت فرات » وبيدمنت ويستقروا فى سهول نهر « اليو » ثم يتقدموا تجاه حدود ليجوريا ودخلوا مدينة جنوه ووقعت فى أيديهم جبال الألب الإيطالية الشاهقة وخاصة ممر « سان برنار » وفرضوا الضرائب على المسافرين إلى روما عبر تلك الممرات وفى جبال الألب الإيطالية لاتزال توجد أعداد كبيرة من القصور والأسوار والقلاع ويذكر الأدلاء للسياح أنها ترجع إلى عهد استقرار المسلمين بتلك النواحى ولعل بعض أسماء الأماكن فى جبال الألب والتى نقرأوها فى دليل بيدكر ترجع إلى أصول عربية إسلامية قام العرب بإنشائها .

مواصلة الجهاد الاسلامى :

وفى عام ٣١٧ هـ / ٩٢١ م كانت سفن إسلامية ترتاد البحر فلقيت أسطولا إيطالياً مؤلفاً من سبع سفن فداهم الأسطول الاسلامى هذه السفن ودمرها وانتصر عليها وكانت نتيجة هذا الانتصار أن استولى المسلمون على مدينة « طومولى » وكذلك كان من أغرب غزوات ذلك العهد غزوة القائد المسلم يعقوب بن إسحاق الذى سار على رأس أسطول ضخم من الأساطيل الإسلامية المتعاونة مع أسطول صقلية قاصداً شمال إيطاليا ووصل إلى مدينة جنوة درة إيطاليا اللامعة ونازلها فأنس بها ضعفا ، فأنزل جندة وبحارته وصادمها صدمة عنيفة مكنته من السيطرة عليها ورفع فوق جدران المدينة راية الاسلام الظافرة راية لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ـ فترة طويلة من الزمن ، وأقام نظام حكم إسلامى بين ربوعها ولكن هناك ظروفاً حالت دون استمرار سيطرة هذا القائد المسلم على ذلك الجزء من الشمال الإيطالى إذ اكتفى بتدمير أجزاء منها والعودة بأسطوله سالماً محملا بالغنائم والأسرى .

وفى تلك الأثناء والمسلمون يستعدون للقضاء نهائياً على آمال الروم بتلك الديار الإيطالية ويستعدون للقضاء على الخطر النصرانى الذى أصبح يزاحمهم فى مياه البحر المتوسط كان بلاط القسطنطينية يشعر بمقدار الكارثة التى حلت به فى ذلك الجزء من القارة الأوربية ويضعف نفوذه البحرى فى البحر المتوسط ولذ فإنه بدأ يستعد لاعادة مكانته الحربية وسمعتة السياسة والدينية لدى العالم المسيحى ، ولذا فإنه لكى يوقف المد الاسلامى فى تلك الانحاء فإنه جهز أسطولا عتيدا أحمله جنداً غفيراً وسلاحاً وفيراً ومؤنة كافية ، وأرسل به نحو الجنوب الايطالى يحاول من خلال تلك القوة البحرية التى جهز لها فى سرية تامة استخلاص ذلك الجزء من العالم الأوربى من أيدى المسلمين .

فعلم بذلك الأمير الحسن بنى على حاكم صقلية ٣٣٥ هـ/٩٤٧ م فأرسل إلى شمال أفريقيا مستنجدا بالمسلمين فجأة المدد والاسلامى واستعد الفريقان للمعركة القادمة وكان ذلك فى عام ٣٣٦ م ٩٤٨ هـ فألقى الجمعان براً وبحراً وأندهر الروم

فرجعوا على أعقابهم وانتصر المسلمون نصراً مبيناً وشيد الحسن بن على مسجداً فى مدينة « رجيو » فى قلب الجنوب الإيطالى توطيداً لدعائم الحكم الإسلامى وتثبيتاً له ، وأجبر الروم المقيمين بمدينة «أونزته» على دفع الجزية. ولكن بعد سبعة أعوام ٣٤٣هـ أعاد الروم الكره على المسلمين فى الجنوب الإيطالى وجاء بطريقهم على رأس عمارة بحرية قوية ونصب الحصار على مدينة نابلى وحاول الانتقام منها، فسار المسلمون إليه تحت قيادة الأمير عمار بن على أخو الأمير الحسن حاكم صقلية ، وكان يتولى ، أمر المسلمين فى أوربا وساعد مدينة نابلى ضد هجوم الروم وتمكنوا من دحر الروم ولكن الروم نزلوا إلى البر فى قلوريه لمحاولة قطع الصلة بين صقلية والبلاد الإيطالية التى بها القوة الإسلامية بقيادة عمارة ، وتمكنت بعض الحاميات الرومية من احتلال مدينة « رجيو » وهدموا المسجد الذى بناه الحسن بن على إيذانا بزوال سلطان المسلمين فى تلك الأنحاء وغالوا فى التعصب فجمع الحسن بن على قواته وسار بها إلى قلوريه وضم جهوده لجهود عمار فالتقى المسلمون بالروم فى وقائع عديدة انتصر فيها المسلمون وأعادوا مدينة رجيو إلى سيطرتهم والتقوا بالأسطول الرومى وحطموه واضطر الروم على أثر ذلك للانسحاب وطلب الهدنة، وكان ذلك عام ٣٤٨ هـ ، ٩٦٠ م .

إمارة بارى :

قال البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان بارى مدينة على شاطىء البحر وكان أهلها نصارى وليسوا بروم غزاها جبله مولى الأغلب فلم يقدر عليها ثم غزاها خلفون البربرى ويقال أنه مولى لربيعة ففتحها فى أول خلافة المتوكل وهى على بحر الأدرياتيك رقام بعده رجل اسمه «المفرح بن سلام » ففتح أربعة وعشرين حصناً واستولى عليها وكتب إلى صاحب البريد بمصر يعلمه خبرة وإنه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة إلا بأن يعقد له الإمام على ناحيته ويوليه إياها ليخرج من صد المتغلبين ـ والمقصود هنا الأغالبة حكام تونس وصقلية وبنى مسجداً جامعا ثم أن أصحابه أنشقوا عليه فقتلوه وقام بعده « سوران » فوجه رسوله إلى أمير المؤمنين المتوكل بالله وكانت خلافته ستة أشهر وقام المستعين بالله أحمد بن محمد بن

المعتصم بالله فأمر عامله على المغرب وهو « أوتامش » مولى أمير المؤمنين بأن يعقد له على ناحية فلم يشخص رسوله من « سرى من راى » وهى العاصمة التى اختارها المتوكل بدلا من بغداد لتكون عاصمة الخلافة العباسية، حتى قتل أوتامش وولى الناحية وصيف مولى أمير المؤمنين فعقد له وأنفذه ، ولعل هؤلاء الفاتحين المجاهدين فى سبيل الله وفى سبيل نشر رسالته السمحة كانوا من أهل جزيرة كريت ولاصلة لهم بدولة الأغالبة القائمة فى تونس والمسيطرة على جزيرة صقلية فعهد المفرج وبعده سوران إلى الخلافة العباسية يراجعها مباشرة لتضمن له ولايته على هذه البلاد وتعترف به شرعياً والياً عليها أو الواقع أن سلطة المفرج وبعده سوران قد امتدت إلى كل الأجزاء الجنوبية من إيالياً ولم يكتفى بما فتحه من أربعة وعشرين حصنا ، بل أن غاراته وصلت إلى جنوب نابلى وسالرن وعمل على مد السيادة الإسلامية إلى أجزاء جديدة من الأراضى الإيطالية ، وقد أدى ذلك إلى زيادة حدة التوتر عندما تقدم المسلمون نحو الشمال فى الفترة من ٨٧٥ - ٩٠٢ م وأنشأوا إمارة صغيرة فى عام ٨٨٣ م فى البلاد الواقعة شرق جانيا فى مصب نهر « ترنب » وقد استمرت هذه الإمارة فى قبضة المسلمين حتى عام ٩١٥ م بل أنهم توسعوا فى ضم أجزاء من الأراضى إلى هذه الولاية الإسلامية الصغيرة التى استطاعت أن تتولى السيادة والسيطرة الإسلامية على ذلك الجزء من بلاد إيطالياً . ولكن لويس الثانى ملك فرنسا كان قد نزل إيطاليا فى عام ٩١٥ م وفتح مدينة بارى وذلك بمساعدة أمراء شمال إيطاليا وقتل كثيراً من المسلمين بها بعد أن دمرها واحرقها كلها فاضطر الباقى منهم إلى ترك الإمارة ، وبذلك انتهت دولة الإسلام فى إمارة بارى والتى قامت فى الجنوب الإيطالى لفترة استمرت أكثر من ثمانين عاما إذ أن فتح مدينة بارى كان فى عام ٨٤١ م ولقد نشر المسلمون فى تلك الإمارة حضارتهم الإسلامية الزاهرة وثقافتهم الراقية فى وقت كان يسود جنوب إيطاليا الفقر والفوضى والوحشية بين سكان تلك المناطق . والتى كان الاسلام وحضارته سببا فى الأخذ بيد هذه الشعوب إلى مدارج الحضارة الاسلامية .

ولكن العرب والمسلمين لم يكتفوا بتلك النتيجة وهذا الانتصار الذى حصل عليه ملك فرنسا وحلفاؤه من أجزاء شمال إيطاليا والذين جهزوا حملاتهم سراً

واستولى على بارى مباغتة وإزاء ذلك الهجوم سار المسلمون إلى الشمال من جهة البحر واستولوا على مدينة « جنوه » عام ٣٢٣ هـ وقد بسطوا نفوذهم على تلك الأنحاء وتحدوا القوة النصرانية المتحالفة التى قضت على إمارة « بارى » بأن فتح المسلمون لهم جبهة أخرى ودار الصراع بين الطرفين من أجل السيطرة على هذه الأجزاء من القارة الأوربية وكان المسلمون بعد إذ تغلبوا على أهل جنوة وأسطولها قد دخلوا المدينة وأصابوا مغانم كثيرة وأخذوا أسرى كثيرين معهم إلى شمال أفريقيا وقفلوا راجعين وكان أسطول جنوة فى جزيرة كورسيكا فلما علم بما حدث للمدينة تحرك إلى جنوة ودارت معركة بحرية عنيفة فى عرض البحر حاول بها الأسطول الجنوى اعتراض الأسطول الإسلامى ولكنه خسر فى تلك المعركة معظم سفنه وتحطم الباقى ولم ينجوا إلا العدد القليل منها .

الغزو الاسلامى لروما عاصمة المسلمين :

ولكن المسلمين الذين كانوا يسعون جاهدين لتحقيق هدفهم فى الوصول إلى كل أوربا بالاسلام ورسالته الخالدة لم يقفوا عند حد الأجزاء الجنوبية من إيطاليا بل أنهم كانوا يسعون من أجل السيطرة على روما عاصمة المسيحية ومن ثم فقد أخذوا يعدون العدة لذلك، لذا فقد كانت الغزوة الأولى لروما عام ٢٣١هـ/٨٤٦م وبها رأى العباس بن فضل بن يعقوب بن فزارة ، ويعرف بابن البربرة حاكم صقلية من توافر العسكر الاسلامى والقوة البحرية الاسلامية بين يديه واجتماع الجيوش الاسلامية من أرجاء شتى من العالم الاسلامى أن الفرصة قد سنحت لضرب المسيحية الضربة الحاسمة والقاصمة وإنجاز العمل الكبير وهو فتح روما والقضاء نهائياً على عاصمة النصارى وضمها إلى ديار الاسلام ، وجهز العباس لذلك أسطولا ضخماً يحمل جنداً عدته الايمان بالله والعمل على نشر رسالته والاستعداد لبذل الدم والاستشهاد فى سبيل الله وقهر أعداء رسالته وإنجاز ذلك العمل الكبير ذلك لأن روما كانت لاتزال لها صيتها وحبها فى قلوب النصارى ، وكان بابا روما يتمتع بمكانة كبيرة لدى الشعوب النصرانية ، وكذلك فإن النصارى كانوا يأتون إليها من كل أجزاء أوربا الغربية لزيارة الأماكن المسيحية بها .

وقد بارك هذه الغزوة الميمونة وشجعها وعمل كل مافى وسعة لإنجاحها أمير صقلية وأمير تونس أبو العباس محمد بن الأغلب وكانت هذه الحملة الاسلامية البحرية من السرايا البحرية الخاصة التى يمتاز رجالها عن بقية رجال الأسطول بالقدرة الفائقة فى فن القتال البحرى والقدرة على صعود الحصون وتسلق القلاع والذى لاشك فيه أن أمير صقلية قد بدأ فى تنظيمها والإعداد لها فى سرية تامة وتحرك الأسطول الاسلامى دون علم الدول النصرانية وخاصة القسطنطينية ، ورست السفن الاسلامية الرافعة لراية لا إله إلا الله ، محمد رسول الله عند مصب نهر التيبسز وسيطر المسلمون على مدينة أوستى ، ثم بدأوا فى الانقضاض على أحد أحياء روما وضربوا الحصار حول المدينة وأخذوا يستعدون للهجوم النهائى عليها فارتاع البابا من ذلك الحصار واهتز الشعب الرومانى والمسيحى عامة فزعا ورعبا وبادر الأمبراطور لويس الثانى إمبراطور الفرنجة ، عندما علم بذلك بإرسال حملة من خيرة جنده لملاقاة الجند الاسلامى وجاءت جنود النصارى من جنوة والبندقية وتابلى وغيرها من المدن الايطالية ، ولكن فى نفس الوقت جاءت حملة إسلامية أخرى دفع بها أمير صقلية لكى تشد من أزر الحملة الأولى وتحكم الحصار حول روما حتى تسقط فى أيدى المسلمين ، ولكن الذى أنقذ روما من أيدى المسلمين هو وقوع الخلاف بين المسلمين أنفسهم مما أدى إلى انسحاب جند الأندلس وكريت من المعركة ، فاضطر جند صقلية وشمال أفريقيا إلى رفع الحصار عن المدينة بعد أن اقتتلوا مع جند إمبراطور الفرنجة وسفن الثغور الايطالية قتالا رائعاً يدل على قوة الجندى المسلم وعادوا إلى الجنوب يحملون معهم كثيراً من الأسرى والأسلاب والغنائم .

وقد كشفت هذه الجرأة الاسلامية عن مدى الضعف لمدينة المسيحية روما وما يمكن أن تتعرض له من المخاطر فعمل البابا على تحصين المدينة وضم بعض الأحياء الخارجية منها إلى السور الكبير الذى بدأ فى إقامته حول روما وذلك لحمايتها من الغزو الاسلامى الذى قد تتعرض له المدينة مستقبلا .

وعن تلك الغزوة يقول أحد كتاب النصارى (ناليتو) أن العرب لم يحاصروا

روما ، بل بلغوا أرجائها فى عام ٨٤٦ م ونهبوا الأحياء المجاورة مثل حى القدس بطرس والقديس بولس وكانا إذ ذاك خارج أسوار المدينة وأنهال عليهم أهل القرى فاضطروا إلى الرجوع عنها ولن نعلق على ذلك الرأى الضعيف وترك للقارىء المسلم الحكم على ذلك التعصب المسيحى إذ كيف يستطيع أهل القرى العزل من السلاح مقاومة وطرد حملة حربية جهز لها منذ فترة طويلة ومسلحة بأحدث أسلحة العصر .

وتوالت بعد ذلك حملات المسلمين على الموانى الإيطالية وظلت فكرة غزو روما وبسط النفوذ الإسلامى عليها تجول فى أذهان المسلمين لعدة أعوام أخرى حتى خرجت لحيز التنفيذ فى فرصة أخرى .

الغزوة الثانية لروما :

ولقد ظل المسلمون ينتهزون الفرص والظروف المناسبة لغزو المدينة مرة أخرى وضمها إلى الدولة الإسلامية الكبرى وحانت الفرصة لهم مرة أخرى عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م فقد نشط أمراء المسلمون فى موانى أفريقيا وكريت وصقلية والأندلس وعملوا على تجهيز حملة كبيرة لهذا الغرض وكان أمير أفريقيا فى ذلك الوقت هو محمد بن أحمد الأغلب وأمير صقلية محمد بن خفاجه وكان أمير الأغالبة قد بسط نفوذه على جزيرة مالطة عام ٢٥٥ هـ وبذلك سهل تحرك الأسطول الاسلامى من أفريقيا إلى صقلية بعد أن كانت مالطة لانزال فى قبضة الروم .

المهم هنا أن الوحدات الاسلامية المختلفة اتفقت فيما بينها على تجمع الأسطول الاسلامى بوحداته المختلفة فى جزيرة سردانية وذلك لتوحيد القيادة الإسلامية وتنفيذ خطة الهجوم على روما وهى الخطة المتفق عليها ، وتحرك الأسطول الإسلامى وقصد إلى الشاطىء الإيطالى ورست السفن جميعها على بعد ١٦ ميل من روما وذلك للزحف من كل الأرجاء وتطويق المدينة وليس مثل الهجوم المباغت الذى تم فى المرة السابقة ، وكان البابا ليو الرابع قد عقد تحالفة دفاعية مع جميع أمراء الموانى الإيطالية ومدنها ومع إمبراطور الفرنجة وملك لمبارديا فى شمال إيطاليا

فبادر هؤلاء جميعا فى الحال عندما أحسوا بالهجوم الاسلامى بالزحف على سفن الأسطول الاسلامى بعد أن كان أكثر رجال القوة الإسلامية قد تحركوا للداخل لأحكام الحصار حول روما ولكن الأسطول الإسلامى كان على حذر ودارت معركة بين الأسطولين بالقرب من روما ولكنها لم تستمر طويلا إذ هبت عاصفة هائله فى ذلك الوقت ارتد على أثرها أسطول الفرنجة إلى الشاطىء واصطدمت سفن المسلمين بعضها ببعض وغرق عدد منها واضطر المسلمون على أثر ذلك إلى الانسحاب وترك روما بعد أن كادت تسقط فى أيديهم .

غير أن ذلك لم يثن المسلمين عن عزمهم من السيطرة على روما وضمها لديار الاسلام فلبثوا يهددون المدنية بالحصار حتى اضطر البابا يوحنا الثالث أن يفاوض المسلمين فى الجلاء عن الأراضى المحيطة بالمدينة والتى كانوا قد سيطروا عليها فى الغزوة الثانية على أن يدفع لهم جزية سنوية قدرها ٢٥ ألف قطعة من الفضة كل عام على ألا يعودوا لغزو المدينة مرة أخرى ولكن المسلمين لم يكتفوا بذلك بل أنهم قاموا ببناء مسجد كبير وجعلوا فى آخر أركانه مأذنه عالية واشترطوا على الروم بألا يمنعوا المسلمين من عمارته وإقامة الصلاة به والأذان بصوت عال ومسموع وإطلاق حرية المسلمين فى ممارسة شعائرهم الدينية وألا يدخله أحد من النصارى ومن دخله من الأسرى المسلمين فهو آمن فسواء كان مرتداً عن دينه أو لازال مسلماً وإن خربوا حجراً منه هدمت كنائسهم كلها فى صقلية وأفريقيا ولكن فتح المسجد لم يدم طويلا غير أربع سنوات ظلت تقام فيه الشعائر وسرعان ما انتهز النصارى فرصتهم وأنقضوا عهدهم وقاموا بهدم المسجد .

إشتداد الصراع بين المسلمين والنصارى :

لقد نبه غزو روما من قبل المسلمين مرتين النصارى للخطر الاسلامى الذى تتعرض له بلادهم وللتوسع الاسلامى الذى كاد أن يطوى كل إيطاليا تحت راية الاسلام ولتصبح ولاية إسلامية تضم إلى بقية الولايات الاسلامية فى أوربا ولتزداد بها رقعة العالم الاسلامى اتساعاً وتزداد بها قوة المسلمين فى أوربا ولتتبعها مرحلة أخرى يمتد بعدها الزحف الاسلامى إلى أجزاء أخرى من القارة

الأوربية وإزاء هذا المد الجارف قام إمبراطور إيطاليا الشمالية الإمبراطور « أوتو » بعقد المحالفات مع إمبراطور الفرنجة ومع جنوة والبندقية وغيرها من الإمارات الإيطالية وطلب المساعدة من القسطنطينية لكى تقوم بطرد المسلمين من إيطاليا كلها وضم بلادهم إلى إمبراطوريته ، وجهز لذلك حملة عسكرية كبيرة وقام بالتقدم إلى الجنوب ، الإيطالى الذى كان قد صار أرضاً إسلامية رفع فوقها راية لا آله إلا الله ، محمد رسول الله ، وزحف على رأس هذه الحملة الكبيرة ليطرد المسلمين وكان واثقاً من نجاح حملته نظراً للمساعدات التى تلقاها والوعود التى وعدة بها حلفاؤه لمساعدته ومدة بالقوات اللازمة عند الضرورة ولكن البنادقة تخلوا عنه فى أحرج الأوقات وامتنعوا عن تقديم أية مساعدات عسكرية له بل إنهم قبلوا التعاون مع المسلمين لأنهم روا أن مصلحتهم فى التعاون معهم وذلك لأنه كان يسعى فى الخفاء لضم البندقية إلى إمبراطوريته ولكن « أوتو » لما وصل إلى « رأس ستيلو » وجد الجميع قد تخلوا عنه وذلك لحكمة المسلمين البارعة فى شق صفوف النصارى فاضطر الملك أوتو أن يواجه جيشاً إسلامياً قوياً موحداً ونتيجة لهذا اللقاء وقتال العرب والمسلمين واستعدادهم للتضحية فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام فقد حلت الهزيمة الساحقة بقوات « أوتو » إذ تمزق جيشه إرباً وساعده الحظ بالفرار من الأسر الاسلامى الذى وقع فيه إذ هرب متنكراً فى ملابس جنـــدى وليس ملابس القائد ولكن فى عام ٩٣٨ م توفى الملك أوتو ومع وفاته ماتت مشروعاته وزال الخطـــر عن المسلمين من جانب أسرة أوتو ولكن فى عام ٩٨٦ م أغارت القوات العربية الإسلامية على مدينة جرانشه كوسترا فى الشمال ثم هاجموا المناطق الغربية فى بارى عام ٩٨٨م ثم زاد خطر المسلمين والعرب بعد هزيمة البيزنطيين أمام الأساطيل الفاطمية العربية أمام الشواطىء السورية ولكن منذ عام ١٠٠٢م أخذ المسلمون ينتشرون داخل إيطاليا فى غارات واسعة كما سيطروا على مدينة منتقديم وسيطروا أيضاً على بارى للمرة الثالثة عام ١٠٣٣ م وبدأت سيطرتهم عليها كما لو كان شيئاً دائماً .

وقد أزعج هذا العمل الإسلامى البنادقة وكرهوا أن يكون للمسلمين ملك دائم فى ذلك الأقليم المسيطر على مدخل البحر الأدرياتى وفى عام ١٠٠٤ م

هاجموا مدينة « بيزا » واستولوا على مدينة كوسترا مرة أخرى ونظراً لانشغال بيزنطة فى حروبها مع البلغار فإنه لم يعد فى تلك الأرجاء فى القارة الأوربية قوة يعتد بها وقادرة على أن تصد غارات المسلمين ولذا فقد أغاروا فى عام ١٠٠٧ م على مدينة بيزا مرة أخرى أو ربما كان المغيرون فى هذه المرة من مسلمى الأندلس وبذلك فقد أصبحت إيطاليا مثلما كانت فى أواخر القرن التاسع الميلادى الصيد السهل للمسلمين والذين كانوا يحاولون فى كل غاراتهم توطيد النفوذ الإسلامى فى تلك الأنحاء .

انكسار المد الاسلامى :

إذا كان قد أصاب المسلمين بعض الخسائر فى إيطاليا من أثر تضافر قوات الامبراطورية البزنطية والجمهوريات الايطالية مثل بيزا وجنوه والبندقية ، وكذلك الامبرطورية الغربية والبابوية فى روما قد تضافرت هذه القوات جميعها على طرد المسلمين من إيطاليا ولقد نتج عن ذلك أن أصاب المسلمين بعض الخسائر فى الجنوب الايطالى نتيجة لتدخل الامبراطور البيزنطى بأسطوله إلا أنه قد بقيت بعض المراكز والمدن الهامة فى هـ ه البقاع بأيدى المسلمين كانوا يستطيعون منها باستمرار تهديد روما والأراضى المحيطة بها ولكن البابا يوحنا العاشر بابا روما كان قد عقد العزم على التخلص نهائياً من المعاقل الاسلامية التى كانت دائما تهدد مدينته فعمل على تأليب جميع أمراء إيطاليا الجنوبية والوسطى والشمالية وامراء باقى أنحاء أوربا والذين بذلوا جهودهم جميعاً وأعانهم الأسطول البيزيطى فاستطاعوا الاستيلاء على أكبر المعاقل الاسلامية وهو معقل « كاربليانو » وقتلوا من كان فيه من المسلمين وقد كان استيلاء النصارى على هذا المعقل الاسلامى أكبر الوقائع الحربية فى إيطاليا الجنوبية وقد شارك البابا يوحنا العاشر بنفسه وعرض ذاته للخطر إلا أنه بهذا النصر ضمن لنفسه ولأملاكه فى إيطاليا درأ الخطر الاسلامى الذى كان يتهدده منذ فترة طويلة بعد أن امتنع عن دفع الجزية التى كان يدفعها أسلافه للمسلمين .

وفى أثناء هذه الحوادث الدامية بين المسلمين والنصارى على أرض إيطاليا

تكونت الامبراطورية المسيحية فى ألمانيا وأراد أباطرة هذه الامبراطورية رفع راية الكفاح والدفاع المقدس فى نظرهم ضد المسلمين فسار الامبراطور الألمانى بقواته الألمانية إلى أرض إيطاليا لملاقاة المسلمين واستطاع أن يحقق بعض النصر عليهم إلا أنه لم يكن نصراً حاسماً يستحق كل هذه المجهودات الحربية التى بذلت من أجل تلك الحملة ولكن النورمان كانوا قد ظهروا على مسرح الأحداث السياسية فى أوربا ومن ثم أخذوا ينتشرون فى إيطاليا الشمالية ومن ثم أخذوا يتقدمون نحو الجنوب وكانت الظروف السياسية السائدة فى العالم الاسلامى قد ساعدت على ذلك إذ مما أصاب العالم الاسلامى من التفكك والانقسام بين القادة المسلمين قد ساعدهم على تنفيذ خططهم إذ كان الصراع على أشده بين الخلافة الفاطمية فى القاهرة والخلافة العباسية فى بغداد والأموية فى الأندلس ، ولذا فقد ترك المسلمون جميعاً إخوانهم المسلمين فى جنوب إيطاليا دون مساعدات إسلامية مما جعل النورمان يتقدمون دائماً فى طريقهم من أجل إنهاء الوجود الاسلامى فى إيطاليا ولم تستطع قوات المسلمين المحلية فى إيطاليا الوقوف أمام زحفهم الكاسح بعد أن انقطع المدد الاسلامى عنهم إذا كان المسلمون يخسرون قواعدهم وينهارون أمام زحفهم المستمر والمتواصل ولذا قرر المسلمون الانسحاب من الجنوب الايطالى إزاء هذه الهجمات المتواصلة وفقدوا الأمل فى وصول نجدات إسلامية من العالم الاسلامى فى الشرق أو شمال أفريقيا فركبوا سفنهم إلى الشمال الأفريقى وأجزاء أخرى من العالم الاسلامى حاملين معهم من رأى الانسحاب وترك من ظل يقاوم الغزو النورمانى وبذلك انتهى الوجود السياسى والحربى للمسلمين فى جنوب إيطاليا ولم يأت عام ١٠٧٨ م إلا وكان النورمانديين قد بسطوا نفوذهم على كل إيطاليا ومن بعدها قفزوا إلى صقلية وبسطوا نفوذهم عليها ، ولم يكن بسط النورمان لنفوذهم السياسى والحربى على إيطاليا الجنوبية وصقلية معناه انتهاء الوجود الاسلامى نهائياً بتلك الأنحاء من القارة الأوربية ولكن على العكس من ذلك فقد ظل المسلمون يمارسون دورهم الثقافى والاجتماعى والحضارى والسياسى أيضاً فى هذه البيئة الاسلامية التى الف النورمان معيشتها فى ذلك الجو العربى الاسلامى وسمحوا للمسلمين بممارسة حياتهم العادية وإقامة شعائرهم الدينية بل أن أباطرة النورمان الأوائل الذين

حكموا صقلية وجنوب إيطاليا كان مستشاريهم من العرب المسلمين وأيضاً رجال القصر وبلاطهم الأمبراطورى وقادة الجند وقادة الحرب والبحرية ظلوا جميعاً من المسلمين ولكن الوجود الاسلامى انتهى كمظهر من مظاهر السيادة والقوة السياسية والعسكرية بسيطرة هؤلاء النورمان على جنوب إيطاليا وصقلية .

الحضارة الاسلامية وثقافتها فى إيطاليا :

يقول المستشرق الإيطالى (لبرتينى) عن أثر العرب والاسلام فى إيطاليا ماهو أنه لو دام الحكم العربى الإسلامى فى جنوب إيطاليا لبضعة قرون أخرى لأزاحت الحضارى العربية الاسلامية الحضارة الراقية والمتطورة والتى جاء بها هذا الشعب العربى الاسلامى المتفتح الواعى الذكى حضارات الشعوب الإيطالية المتأخرة والتى تسمى تجاوزاً حضارة ، فقد كانت إيطاليا فى ذلك الوقت فقيرة جداً ، تحتشد بها عصابات متوحشة كثيرة تعمل على السلب والنهب وإقلاق الراحة فى الأقاليم الإيطالية أما العرب المسلمون بطبيعتهم وإيمانهم برسالتهم وشدة تمسكهم بدينهم الاسلامى الحنيف فإنهم دائماً كانوا ولازالوا يعملون على رقى وتحضر البلاد التى فتحوها وإيطاليا شأنها شأن كل الأقطار التى خضعت للمد الإسلامى وإزدهرت فيها الحضارة الإسلامية والثقافة العربية وأنت ثمارها التى نعم بها الشعب الإيطالى فى عهد النهضة فالعرب أدخلوا محاصيل الشرق الزراعية إلى إيطاليا وأدخلوا صناعات لم تكن معروفة إطلاقاً فى أوربا ومنها أن العرب أنشأوا مصانع لصناعة الورق فى صقلية ومنها انتشرت صناعة الورق فى إيطاليا وأقام العرب له مصانع فى الأجزاء الجنوبية من البلاد .

وأيضاً أنشأوا المصانع لطبع الثياب ومن مصانعهم كانت تصدر الثياب المحلاه بالجواهر وأيضاً للطنافس المصورة بأنواع الصور إلى أجزاء كثير من أوربا وأيضاً أدخلوا صناعة الجلود المدبوغة وصناعات الحلى وغيرها من الصناعات التى كانت تجهلها إيطاليا وغيرها من البلاد الأوربية فى ذلك الوقت وأيضا تقدم فن البناء والعمارة وكانت المبانى الإسلامية التى أقيمت فى إمارة بارى وغيرها من الأجزاء الأخرى التى انطوت تحت الحكم الإسلامى فى إيطاليا ـ المبانى تعتبر آية من آيات

الفن العربى الاسلامى فى مبانى ضخمة وعظيمة استخدمت فيها الفسيفساء والمزايكو وحلوها بالصور والنقوش والآيات القرآنية الجميلة وأكثروا من القصور ذات الحدائق الغناء ، وبقدر اهتمامهم بالعمارة والمبانى السكنية فقد اهتموا اهتماما خاصا بإقامة وبناء المعاقل والحصون والقلاع الحربية وأيضاً بناء القناطر والكبارى وغيرها من شتى الأمور التى كانت تزدهر بها الحضارة الاسلامية العربية فى ذلك الوقت باعتبارها أستاذة الحضارات الإنسانية والعالمية فى العصور الوسطى ، بل تكاد تكون الحضارة الوحيدة طوال أربعة قرون متواصلة .

واهتم العرب والمسلمون فى جنوب إيطاليا ببناء المساجد الواسعة الرائعة بل أنهم أكثروا من بناء المساجد فى كل مدينة من المدن التى كانت تخضع لهم ولنفوذهم الاسلامى أو يوجد بها عدد من المسلمين وإنشاء الكثير من الفنادق والحمامات وبلغت الحضارة الاسلامية فى جنوب إيطاليا شأناً عظيما لأنها تأثرت بل صبغت بصبغة الحضارة الاسلامية التى كانت سائدة فى صقلية وكريت والأندلس واستقت من هذه المنابع الثلاثة مصادرها وقوتها بالإضافة إلى الحضارة الوافدة من الشرق الإسلامى والشمال الأفريقى ، وكذلك اهتم الحكام المسلمون الفاتحون بإدخال السكان المحليين فى الدين الاسلامى الحنيف فانتشر الاسلام ولغته العربية الغراء الخالدة بين السكان وغلب اللسان العربى على أكثر الأرجاء وترك العرب ولغتهم ألفاظاً كثيرة فى اللغة الايطالية ولقد كان العرب والمسلمين بعلمهم وثقافتهم وحضارتهم أكثر وأعمق من تأثيرهم بكيانهم السياسى إذ أن الثقافة العربية الاسلامية هى التى تشبع بها الشعب الايطالى وساعدت على قيام عصر النهضة فى إيطاليا ومنها انتقلت إلى أنحاء أخرى من القارة الأوربية .

ويقول مستشرق آخر غير « ليبرتينى » هو المستشرق الايطالى « رينالدى » أن الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية فى اللغة الايطالية التى تفوق الحصر دخلت اللغة الايطالية لا بطريق السيطرة العربية والغزو ولكن بطريق المدينة الاسلامية المتطورة المتقدمة التى امتاز بها العرب والمسلمين كثيراً ما تؤلف بين مظاهر الحياة المختلفة وأن كثيراً من الكلمات العربية استخدمت فى اللغة الايطالية ولاسيما

فى لغة العلم وقال أن من أثر تأثير الحضارة العربية فى إيطاليا وقوة لغتها الغراء وأن دفع ذلك حكومة جنوة الايطالية إلى أن تؤسس فى بداية القرن الثالث عشر الميلادى ١٢٠٧ م مدرسة لتعليم اللغة العربية ويدل ذلك على وجود كلمات كثيرة فى لغة هذه المدينة وفى اللغات العامية فى جميع المدن الايطالية التى خضعت للمد الاسلامى طوال فترة الوجود الاسلامى فى إيطاليا أو تاجرت مع الشرق الاسلامى بعد أن انفصلت عن السيادة الاسلامية .

ولقد دخلت كلمات كثيرة من أصل عربى مع التجارة العربية الوافدة من العالم الاسلامى ولا تزال كلمات عربية كثيرة فى معاجم لغتهم إلى اليوم ، وأيضا فإن الهندسة الغربية إذا أمعنا النظر فيها نجد أنها ليست إلا هندسة عربية خالصة ثم أيضا أسماء الموازين والمكاييل والألفاظ العربية الحربية والبحرية التى سرت إلى اللغة الايطالية من اللغة العربية ، فإذا كانت صقلية مدينة للعرب وللإسلام فإن إيطاليا مدينة لصقلية فى ابتكار الشعر الوطنى ولقد قلد أمراء النورمان فى حكمهم وأسلوب معاملتهم وحياتهم فى قصورهم ودواوينهم وكل أسلوب حياتهم النظام العربى الاسلامى الذى كان سائداً فى صقلية وجنوب إيطاليا قبل سيطرتهم عليها وإقصاء الوجود الاسلامى من تلك الأماكن التى خضعت للمد الاسلامى فترة طويلة من الزمن .

كذلك فإن العرب والمسلمين لم يساعدوا فقط على نهضة الشعر الايطالى بل أنهم أعدوا قطعا إيطالية بشكلها ومادتها وأن دانتى شاعر إيطاليا اقتبس موضوع روايته الكوميديا الإلهية من رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى سواء اعترف شعراء الغرب اليوم أم لم يعترفوا فإنها تكاد تكون صورة طبق الأصل لرسالة المعرى وإن كان هناك فريقا من أدباء الغرب يعترفون بهذه الحقيقة الثابتة وكذلك من مدرسة الطب التى نشأت فى بلرم عاصمة صقلية انتشر الطب العربى ومؤلفاته العربية الاسلامية ومدارسه وإن العلوم العربية الاسلامية بكل فروعها أخذت تنتشر فى كل المدن الايطالية ومن هنا فإنه يمكن القول بأن الحضارة العربية الإسلامية هى صاحبة الفضل الأول والأخير فى ظهور عصر النهضة فى إيطاليا

وفى أوربا فى العصور الوسطى وأن ترجمة الكتب العربية الكثيرة فى مختلف فنون المعرفة الإنسانية إلى اللغة اللاتينية هى السبب المباشر والقوى لازدهار حضارة الغرب والتى ينعم بها العالم اليوم والتى ما هى إلا ثمرة من ثمرات الحضارة الإسلامية العربية التى اقتبس منها رجال أوربا الأسس الأولى لقيام حضارة العصر الحديث .

الاسلام فى إيطاليا اليوم :

تمر الأيام والسنين والأحوال فى إيطاليا كما هى على الرغم من انقراض الوجود الاسلامى فى القرن ١٢ م حتى بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ حيث أخذ بعض المهاجرين المسلمين يهاجرون إلى إيطاليا من الكتلة الشيوعية فى أوربا الشرقية بعد خضوعها للحكم الشيوعى مع هجرة صغيرة من ليبيا وتونس وأرتيريا . كما أخذ بعض الإيطاليين يعتنقون الاسلام وأنه طبقا لآخر إحصاء فإنه يوجد فى إيطاليا اليوم حوالى ٥٠ ألف مسلم ، كذلك توجد جمعية إسلامية لرعاية شئون اللاجئين القادمين من أوربا الشرقية وهذه الجمعية لها جهود لدى الحكومة الايطالية بشأن إعتراف إيطاليا بالدين الاسلامى ، وتوجد جمعية أخرى تأسست عام ١٩٦٤ كمركز إسلامى بمساعدة السفارات العربية والإسلامية، وتحاول هذه الجمعيات إنشاء مدارس إسلامية بمساعدة رابطة العالم الإسلامى ، كذلك يوجد للمسلمين مدافن خاصة بهم ولهم مراكز أخرى فى ميلانو ويلاحظ الآن بعد توطيد العلاقات بين إيطاليا والدول العربية الإسلامية إنه قد قل التعصب ضد المسلمين ويبدى كثيراً من الإيطاليين الرغبة فى التعرف على الإسلام ومبادئه ولاسيما أن الاسلام قد استقر فى جنوب إيطاليا فترة طويلة من الزمن وخاصة صقلية وغيرها من الأماكن الأخرى فى إيطاليا .

وتلك هى نظرة سريعة عن الإسلام والثقافة العربية فى إيطاليا ألقينا بها الضوء على جزء من العالم الاسلامى الذى زال الإسلام بعد أن كانت أرضا تشبعت بروح الاسلام وحضارته ولكن المد الاسلامى سوف يزداد فى الأيام القادمة إن شاء الله .

الاسلام والثقافة العربية فى جزيرة صقلية

لقد خرج العرب والمسلمون من الجزيرة العربية يرفعون راية الجهاد ، راية لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . لينشروا دينهم وعقيدتهم الإسلامية السمحة فى كل مكان يقطنه بشر وفوق كل أرض يعيش عليها قوم ونجحوا فى غزو بلاد فارس وبدوا يستولون على أرض الدولة البيزنطية ففتحوا مصر والشام وغيرها من البلاد التى كانت تخضع للامبراطورية البيزنطية ومضى العرب فى طريق الله أكبر حى على الجهاد يدفعهم الحماس الشديد لنشر راية الإسلام ورفعها خفاقة عالية فى كل البقاع ، حتى أن فتوحاتهم كانت كموج البحر الجارفة تكتسح أمامها كل الأوثان وتنشر عقيدة الإسلام ، وكان من خطط المسلمين الأوائل نشر عقيدتهم ورفع راية الإسلام فى كل القارة الأوربية ،ولكن حالت جدران مدينة القسطنطينية دون اختراق المسلمين القارة الأوربية من الناحية الشرقية كذلك كانت معركة بلاط الشهداء ووقوف الزحف الإسلامى أمام مدينة بواتيه ، حائلا دون اختراق القارة الأوربية من الناحية الغربية ، بعد إن كانت أمواج المسلمين قد اخترقت جبال البرانس، وزحفت فى سهول فرنسا الواسعة الجنوبية ، وكان حلم موسى بن نصير الكبير أن يفتح أوربا من الغرب ويصل دمشق عن طريق روما والقسطنطينية بعد أن حالت القسطنطينية دون فتح أوربا من الشرق .

ورغم وقوف مدينة القسطنطينية ومدينة بواتيه دون اندفاع المد الإسلامى لنشر الاسلام إلى كل القارة الأوربية إلا أن المسلمين لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذه الاعتراضات وكيف وقد شاءت الإرادة الإلهية أن تخفف الراية الإسلامية أمام عاصمة المسيحية روما ، وقد حانت الفرصة للمسلمين أن يقوموا بفتح أوربا من القلب (الوسط) وثم بعد ذلك الانتشار على الجناحين الشرقى والغربى فكان غزو جزيرة صقلية فكرة صائبة للانتشار منها إلى سهول أوربا الوسطى وفى هذا المقال سنلقى الضوء على النقاط التالية :

اولا : محاولات الغزو للجزيرة .

ثانياً : الغزو والاستقرار .

ثالثاً : الحضارة الإسلامية فى الجزيرة وأثرها على النهضة الأوربية .

رابعاً : إنكسار المد الاسلامى من الجزيرة وإخراج المسلمين منها .

وجزيرة صقلية التى هى محور الدراسة تبلغ مساحتها ٢٥٨١٥ كم٢ ويفصلها عن إيطاليا مضيق مسينا وعاصمتها بالرمو وهى أكبر جزر البحر المتوسط وأكثر سكانا وتقع بين بحر إيجه والبحر التريانى وتبعد حوالى ١٦٥ كم عن شمال أفريقيا وهى فى الشكل مثلثة الأضلاع بوجه التقريب ومعظم سطحها جبلى ، وتمتاز الجزيرة بجوها اللطيف .

اولا : محاولات الغزو :

تعتبر محاولات الغزو الأولى للجزيرة فى عهد معاوية بن أبى سفيان مقدمة لفكرة الغزو من الوسط فقد بدأت المحاولة الأولى عام ٤٥ هـ وكانت فى شكل غزوه مكونة من مائتى سفينة خرجت من سواحل الشام لغزو صقلية تحت إمرة عبد الله بن قيس وقد استطاع هذا القائد المسلم أن يرسى بسفنه ، وأن ينزل قواته المؤمنة برسالة ربها العاملة على نشرها ، أن يدحر الروم ، ولكنه قفل راجعاً بعد أن غنم مغانم كثيرة من الجزيرة ولقد قام العرب والمسلمون بعد هذه الغزوة بعده غزوات للجزيرة ، وكانت أهم هذه الغزوات هى الغزوة التى عرفت باسم غزوة الإشراف ، وكان القائم بأمر هذه الغزوة الاسلامية بطل العروبة والاسلام موسى بن نصير القرشى وكان أن صاح فى القوم ، حى على الجهاد ، حى على الاستشهاد ، فلبى القوم داعى الجهاد فى سبيل الله أفواجاً ولم يبق شريف إلا واشترك فى هذه الغزوة وكل منهم ركب إلى الجهاد ويحلم بفتح أوربا من القلب ، وعقد موسى لواء الغزوة الميمونة لابنه عبد الله ، فنزل عبد الله أرض صقلية يعلو صوت الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله ، على كل صوت واستطاع أن يدمر قوى الروم وأن يغنم مغانم طيبة إلا أنه لم يستطع البقاء بها وإتمام الفتح فقفل راجعاً بأسطوله إلى أرض أفريقية ، ولعل طول المسافة بين

صقلية وأفريقية (تونس) وصعوبة إرسال المدد إلى صقلية وعدم سيطرة الأسطول الاسلامى فى ذلك الوقت على البحر المتوسط سيطرة كاملة جعلت موسى يعدل عن فكرة الاستقرار والغزو من صقلية مؤقتاً ويختار الأندلس لكى يفتح منها أوربا .

ولكن رغم فتح الأندلس إلا إن المحاولات لم تنقطع عن غزو صقلية ، حتى أنه فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ولى أمر أفريقية عبد الله بن الحبحاب ، فرأى أن يقتفى أثر موسى بن نصير وأن يدخل أوربا من الوسط من صقلية ، فأرسل غزوة بحرية لقيت الأسطول الرومى الذى اعترضها فى عرض البحر المتوسط فدارت معركة بين الأسطولين خرج منها الأسطول الرومى مهزوماً شر هزيمة إلا أن المسلمين لقوا بعض الصعوبات فى محاولات الفتح ، ورجعت أساطيل المسلمين بما غنمته من الروم ، ولكن ابن الحبحاب لم يكتفى بذلك ورأى أن نتيجة المعركة لم تحقق هدفه من غزو الجزيرة ومن هنا فإنه صمم على غزوها بأية وسيلة فأرسل غزوه قوية كثيرة العدد والعدة ولم تكن الكثرة هنا بعدد ماتحمله السفن من رجال ولكن الكثرة هنا كانت بقوة الايمان وعزيمة الرجال الذين ذهبوا فى هذه الحملة ، واختار قائداً قوى الشكيمة هو « حبيب ابن أبى عبيده بن عقبة بن نافع ومعه ابنه عبد الله وكان ذلك عام ١٢٥ هـ ونزل رجال الأسطول أرض صقلية ولقن الروم درسا لن ينسى وعرفهم معنى القوة الروحية التى يتمتع بها المقاتل المسلم ، ومن ثم فقد طاب الروم الصلح ولكن حبيباً وابنه عبد الله كانا قد عقد العزم على البقاء بالجزيرة وكان قد تيسر لهم الاستقرار بعد أن سيطروا على معظم الجزيرة واستولوا على كثير من مدنها ولكن قيام ثورة البربر وكانت فتنة عمياء جعلت حبيباً يفكر فى العودة إلى أفريقية فى وقت كانت الظروف السياسية فى أوربا تساعده على القفز إلى إيطاليا والتوغل فى سهول أوربا الوسطى ولكنهما رجعا على مضض .

وفى عهد الوالى عبد الرحمن الفهرى ، أعاد عبد الله بن حبيب غزو الجزيرة وكان قد خبرها ، وعرف مسالكها وطرقها ولكن الروم كانوا قد حصنوها وأقاموا عدداً من الحصون والقلاع والأبراج فى الأماكن التى اعتاد المسلمين النزول فيها ، إلا أن عزيمة الايمان استطاعت أن تقهر الروم رغم الصعوبات

التى قابلت المسلمين وا كتفى عبد الله بالصلح وعاد محملا بالغنائم التى استولى عليها، ويبدو أن هناك ظروفاً حالت للمرة الثانية دون بقائه بالجزيرة ، وقد يكون الغرض الأساسى من هذه الحملة هو إظهار القوة البحرية الإسلامية للروم وأن المسلمين قادرين على الإغارة على الجزر المسيحية ونقل ميدان القتال إلى الأرض الأوربية وتحذير الروم من التفكير فى مهاجمة المدن الإسلامية التى تقع على الساحل الأفريقى .

ثانيا : الغزو والاستقرار :

وكان لما استقام الأمر لبنى الأغلب فى تونس وتوطد لهم الملك والسلطان أن عقد ثالث أمرائهم العزم على الجهاد فى سبيل الله ورفع رسالة الاسلام خفاقة عالية فوق أديم صقلية ، ولقد اهتم إبراهيم بن الأغلب بإنشاء الأساطيل لمد النفوذ الأغلبى عبر البحر المتوسط ومن ناحية أخرى فقد بات واضحاً أن القسطنطينية لم يعد لها القدرة أو القوة الكافية لصد غارات المسلمين على جزيرة صقلية أو استعادة جزيرة كريت أو حماية جزر بحر إيجه والسواحل التى تعرضت لغارات المسلمين بصفة مستمرة ولقد كانت الظروف التى تحيط بالأغالبة تحتم عليهم إعداد جيش قوى وأن يهتموا ببناء الأساطيل وإعداد القوات البحرية حتى يمكن تنفيذ مخططهم الذى كان يرمى إلى فرض سيادتهم على الحوض الأوسط للبحر المتوسط وذلك جهاداً فى سبيل الله ، كذلك لحماية وجودهم ومصالحهم فى حوض البحر المتوسط فعملوا على إعادة بناء أسطولهم فى شمالى أفريقيا ، وبعد فترة أصبح لديهم أسطولا قوى يستطيع مواصلة الفتوحات الإسلامية فى الحوضين الأوسط والغربى وكانت صقلية هدف الأغالبة وكان الروم قد استولوا على بعض سفن المسلمين فى البحر المتوسط وأخذوا من بها أسرى إلى صقلية وبذلك تكاثر عدد الأسرى المسلمين لدى الروم ، فعقد زيادة الله الأغلبى إتفاقاً مع حاكم الجزيرة ، تعهد فيه الأخير بإرجاع الأسرى المسلمين إلى أفريقيا ، ولكن الحاكم الرومى لم يوفى بعهده وبما وعد به من إطلاق الأسرى المسلمين، وحدث أن قامت ثورة بالجزيرة وأدت هذه الثورة إلى حدوث أنقسام بين أمراء الجزيرة لجأ فيه أحد الثائرين واسمه فيمى

إلى زيادة الله الأغلبي ومنه عرف الأمير الأغلبي بوجود أعداد كبيرة من الأسرى المسلمين بالجزيرة فأعلن الأمير زيادة الله حث على الجهاد ، حتى على نشر الدين الإسلامى الحنيف وتحقيق حلم الأجداد فى شق القارة الأوربية من القلب .

وعقد لواء الغزوة المباركة إلى وزيرة العالم الفقيه رجل الدين والفتوى ، أسد بن الفرات وكان قد جاوز السبعين عاما من عمره ولكن قوة إيمانه جعلته يبدو فى سن الشباب والرجولة وكان القاضى أسد بن الفرات ، قد طلب من زيادة الله الأغلبي الإذن له بالخروج صحبة الجند الاسلامى حتى ينال شرف الجهاد ، أو شرف الاستشهاد فى سبيل الله ، فلبى زيادة الله طلب القاضى وأولاه إمارة الجيش الفاتح المتوجه إلى الغزو فى صقلية .

وأمر زيادة الله أن يخرج الجند الإسلامى حاملا راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأقلع الأسطول الأغلبي فى ربيع الأول ٨٢٧ م ووصل الأسطول المكون من سبعين سفينة حربية تحمل عشرة آلاف مقاتل وسبعمائة فارس ، إلى أرض الجزيرة ، بعد ثلاثة أيام من الإبحار المتواصل ليل نهار فى عرض البحر ، ونزل العرب عند « مازر » واستطاع المسلمون أن يحرزوا انتصار سريعاً على الروم ثم تقدموا نحو سرقوسه ومنها زحفوا إلى العاصمة بالرمو فحاصروها حصاراً طويلا حتى فتحوها واتخذوها قاعدة حربية لمواصلة فتح أنحاء الجزيرة والاستيلاء على القلاع والحصون الرومية التى فر منها الجند الروم من وجه الجيش الاسلامى وتحصن بها ولكن منذ ذلك الوقت فإن صقلية دانت للإسلام والعروبة ونستطيع القول أنها أصبحت جزءاً من العالم الاسلامى الكبير ، بعد أن كانت تخضع لسيطرة الروم . وبسقوط بالرمو . فإن نفوذ العرب والمسلمين قد تمكن من الجزيرة ، وليس أدل على حماس المسلمين وغيرتهم على نشر دينهم فى تلك الجزيرة ، من أنهم اتخذوا مما فعله طارق بن زياد حين غزا الأندلس من إحراق السفن التى ترسوا عليها حتى لا يفكروا فى العودة من حيث أقوم ، مثلا رائعاً لهم فقام القائد المسلم المجاهد محمد بن أبى الجوارى والذى خلف أسد بن الفرات فى قيادة الغزوة الميمونة بإحراق سفن الأسطول عن آخرها وذلك حتى يعمل المسلمون

على الاستقرار النهائى بالجزيرة وكانت هـذه الفعلة عملا رائعاً فى ازدياد حماس المناضلين فى سبيل الله ، فصمموا جميعا على البقاء فى الجزيرة ومواصلة الجهاد حتى يتم لهم تحرير كل الجزيرة من رجس الكفار وأخذوا فى غزو باقى الأجزاء التى لم تخضع لهم وبذلك تمت لهم السيطرة الكاملة على الجزيرة بمرور الزمن، وإن كانت هناك بعض المدن التى لم تسقط فى أيدى المسلمين إلا بعد عشر سنوات منذ بداية استقرارهم بالجزيرة مثل « قيصريانه » ولـكن فى النهاية خضعت كل المدن والقرى التى انطوت جميعها تحت راية التوحيد راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولم يكن فتح صقلية ميسوراً بل كان يكتنفه كثيراً من الصعاب والعقبات خاصة وأن السرايا التى اتجهت للجزيرة من قبل إبتداء من ٢٢ هـ /٦٥٢ م حتى حملة ١٩٧ هـ / ٨١٤م نبهت الروم إلى المناطق التى يرمى المسلمين إلى السيطرة عليها فى البحر المتوسط فأعدوا للأمر عدته وحصنوا الجزيرة وجعلوا منها قاعدة أمامية وصارت سفنهم تخرج كل عام لتطوف بالجزيرة فضلا عن مراقبتهم تحركات أسطول الأغالبة وأساطيل سوريا ومصر فى شرق البحر المتوسط وأسطول الامويين فى الاندلس. ولقد كانت سياسة بيزنطة من العوامل التى أدت إلى قيـام ثورة « فيمى » قائد الأسطول البيزنطى فى هذه الجزيرة وكان هو الذى حرض الأغالبة عـلى دخول الجزيرة وفتحها ، وهكذا كانت الظروف مواتية للأغالبة لتنفيذ خطة فتح الجزيرة ولقد كان فتح الجزيرة مقدما بطابع الجهاد فى سبيل الله وأن تخطيط الفتح والتفـكير فيه كان بفعل أسد بن الفرات قاضى القضاة .

كذلك فإن بيزنطية لم توجه جهوداً كبيرة للدفاع عن الجزيرة إلا بمقدار ما كانت تسمح به مشاكلها الداخلية نظراً للضغط الواقع على حدودها فى آسيا الصغرى وبفتح صقلية أصبح جنوب إيطاليا مهدداً من ناحية الأغالبة ولعل هذا ما حمل نابلى على التحالف مع الأغالبة وبالإنتباه من السيطرة على كل صقلية فإن هذا النصر يعد دليلا قويا على ما وصلت إليه كفاءة الأسطول الأغلبى الذى وقف أمام أسطول البيزنطين ، ويعتبر فتح صقلية من الأحداث الهامة فى تاريخ البحرية الاسلامية فى البحر المتوسط إذ صارت سيادة الحوض الأوسط فيه فى يد الأغالبة . وكانت تدعمهم قوة بحرية إسلامية فى الغرب تتمثل فى الأسطول الأندلسى الذى ساندهم

فى فتح الجزيرة واستطاع أسطول الأغالبة أن يتخذ من هذه الجزيرة قاعدة لهم للقفز منها على جنوب إيطاليا وفتح أوربا .

وقد حكم المسلمون الجزيرة فترة تزيد عن مائتين وثلاثة وثلاثون عاما كانوا هم سادة الجزيرة وحكامها والعاملين على نشر رسالتهم بين أهلها وتوالى الحكام المسلمون فى هذه الفترة على حكم الجزيرة فترة خلال الحكم الأغلبى وفترة أخرى خضعت تونس للدولة الفاطمية فآلت الجزيرة بدورها للدولة الفاطمية سواء فى فى المهدية أو للقاهرة ، وكان الأهالى لما علموا بانتصار أبى عبد الله الشيعى على الأغالبة ثاروا على واليهم وطلبوا وضع أنفسهم تحت سيادة الفاطميين ، ولقد حدث فى جزيرة صقلية بعد انتقال الحكم من الأغالبة إلى الفاطميين فترة من الفتن والشقاق وقد يكون ذلك سبب ميل مسلمى صقلية إلى المذهب السنى والخلافة العباسية ولقد كانت الدولة الفاطمية شديدة الحرص على الاحتفاظ بنفوذها قويا فى الجزيرة وذلك لعدة أسباب منها أن الذى يسيطر على صقلية يتحكم فى شرق وغرب البحر المتوسط ويكون له النفوذ القوى فى البحر المتوسط كله وقد أدت الخلافات العقائدية إلى ضياع الجزيرة من أيدى المسلمين ، ولكن بوجه عام لم يكن المد الاسلامى فى الجزيرة إلا طوفانا حضارياً جارفاً صبغ الجزيرة بالصبغة الإسلامية العربية وترك الاسلام وثقافته الراقية جذورة القوية الراسخة حتى بعد أن تخلص الكفرة من مسلمى الجزيرة .

ثالثا : الحضارة الاسلامية بالجزيرة :

توالى المسلمون من عرب وبربر وغيرهم من الأجناس الأخرى على الجزيرة للفتح والاستقرار ومن ثم أخذوا ينشرون حضارتهم الإسلامية ، فبنوا بها القرى والمدن والقلاع والحصون وعمروا أرضها وأحيوا بساتينها وفلحوا أرضها وأقاموا القناطر والكبارى والسدود وأسسوا المدارس والمساجد والمستشفيات التى مارست دورها فى نشر الحضارة العربية الإسلامية ، وأنشأوا وأدخلوا بها صناعات كانت مجهولة فى أوربا وادخلوا كثيرا من الزراعات التى لم تكن معروفة بالجزيرة من قبل بل فى كل أوربا مثل أشجار الزيتون والنخيل والليمون والبرتقال وقصب السكر ، وكان المسلمون السبب فى ازدهار الجزيرة وفى تمدينها ، فكتبوا

بذلك صفحة حافلة بالأمجاد والأعمال الطيبة وتركوها على أرض الجزيرة ومنها استطاع الأوربيون أن ينهلوا من معين الحضارة العربية الإسلامية وأن يرتوا من ثمار فكرها المتطور الذى كان سببا فى رقى أوربا وتحضرها .

ولقد كانت المبانى الضخمة والفخمة الرائعة الفن والجمال أثر من آثارهم الحضارية الراقية فى صقلية ، كذلك كان مسلموا الجزيرة شديدى الحماس لدينهم الإسلامى الحنيف فعملوا على نشره بين الأقوام النصارى من سكان الجزيرة أو أو القادمين إليها من البلاد الأخرى للتجارة والتبادل ، واظهروا تمسكا بدينهم واعتزوا به وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن حوقل فى كتابه المسالك والممالك عن عاصمة صقلية بالرمو من أنه من شاهد بها أكثر من ٣٠٠ مسجد ويستشهد على ذلك بقوله بأنه كان واقفا بجوار منزل أبى محمد الفقيه وقاضى العاصمة فشاهد من مسجده بمقدار رمية سهم أكثر من عشرة مساجد يدركها ببصره وسأل عن هذه المساجد فقيل له إن القوم هنا يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجداً مقصوراً عليه وحاشيته وأسرته وكان القوم يتخذونها أماكن ليتفقهوا بها ، ويدرسوا بها علومهم الإسلامية وكانت هذه المساجد آية من آيات الفن الإسلامى وصارت العاصمة بالرمو فى العهد الإسلامى مركزاً من مراكز الحضارة والتقدم والرقى فى البحر الأبيض المتوسط وارتفعت مكانتها العلمية والحضارية وصناعاتها وعلومها إلى مصاف العواصم الإسلامية الأخرى كبغداد والقاهرة ودمشق وتونس وقرطبة والقيروان وغيرها عن العواصم الإسلامية فى ذلك الوقت وكانت فترة الوجود الإسلامى بصقلية من أزهى أيام الجزيرة وأكثرها أمنا واستقرار وعمرانا ، والحديث عن هذه المظاهر الحضارية الإسلامية بالجزيرة بالتفصيل سوف نتناوله فى الفصل الرابع من هذا الكتاب . ولكن يمكن القول أن العرب والمسلمين أقاموا نظاما أو نظاماً إداريا لم يكن معروفاً من قبل بالجزيرة ، وكان المسلمون هم أول من أدخل هذا النظام إلى الجزيرة . وقد عاد هذا النظام على المسلمين وسكان البلاد بالفائدة المرجوه إذا ضمن الأمن والاستقرار ، وسارت الأمور فى البلاد وشئون الحكم على أحسن وجه وعلى خير ما يرام ، كذلك أدخل المسلمون نظامهم القضائى الإسلامى القائم على الشريعة الإسلامية الغراء ، والحكم بما أنزل الله فى قرآنه الكريم والسنة

النبوية الشريفة وانتشر بين السكان المذهب المالكى وهو المذهب الذى كان سائدا فى شمال أفريقيا قبل ظهور الفاطميين على مسرح السياسة العربية الإسلامية فى شمال أفريقيا وقبل خضوع صقلية للحكم الشيعى ، وحتى بعد أن آلت الجزيرة لحكمهم لم يكن أنصار المذهب الشيعى بين السكان إلا أقلية قليلة وربما تكون قد أخذت بهذا المذهب قبل حضورها إلى الجزيرة .

وكذلك نظم المسلمون الجباية والديوان وسكوا العملة الإسلامية الذهبية والفضية والنحاسية وأنشأوا مدرسة لتعليم الطب وقام بالتدريس فيها أكبر الأطباء العرب وأشهرهم ومن مدرسة الطب فى صقلية انتقل علم الطب العربى إلى إيطاليا ومنها إلى باقى دول أوربا، كذلك أدخلوا الصناعات التى لم تكن معروفة من قبل وبذلك تقدمت الصناعة وازدهرت بها وكان العرب والمسلمين هم السبب المباشر فى إدخال صناعة الورق إلى صقلية ومنها انتقل إلى إيطاليا وبعد ذلك عرفته أوربا عن طريق صقلية واستخرجوا المعادن من باطن الأرض كالفضة والحديد والنحاس والكبريت وأدخلوا صناعة الحرير وفن صباغة الملابس والأثواب ومن صقلية انتقل هذا الفن إلى أوربا . .

واتسع نطاق التجارة وتاجرت الجزيرة مع بلاد الشمال الافريقى ومع مصر والشام وجزر البحر المتوسط التى كانت كلها تدين بالإسلام فى ذلك الوقت وتخضع للمد الاسلامى، وتبادلت السلع والمنتجات مع الأندلس وجنوب إيطاليا وفرنسا وسويسرا وغيرها من المدن الإيطالية وألمانيا وباقى بلاد أوربا . ولقد كانت المدارس التى قامت بصقلية ذات فضل عظيم على الحضارة الأوربية إذا عن طريق هذه المدارس وما كان يدرس بها من علوم إلى جانب العلوم الدينية سبباً فى ازدهار ما نراه اليوم من حضارة مادية فى أوربا وكذلك لايستطيع أن ينكر الدور الذى لعبته صقلية وعلماؤها المسلمون أى باحث أو دارس للتاريخ الإسلامى فى تلك المنطقة من البحر المتوسط إذ أن صقلية لعبت دوراً بارزاً وهاماً لا يقل عن دور الأندلس فى نقل الحضارة الاسلامية العربية إلى أوربا إذ عن طريق إيطاليا وصقلية انتقلت الحضارة الاسلامية والتى كانت سبباً مباشراً فى ظهور عصر النهضة الأوربية فى العصور الوسطى والذى كان مقدمة للتطور الحضارى الهائل

الذى ينعم به العالم اليوم ، كذلك فإن صقلية كانت إحدى ثلاث معابر عبرت منها الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا .

رابعا : انكسار المد الاسلامى عن الجزيرة واخراج المسلمين عنها :

لقد توالى على حكم الجزيرة حكام بن الأغلب ثم جاء بعدهم حكام الفواطم وكل منهم كان يعمل ماوسعه العمل لتوسيع رقعة الاسلام وترسيخها فى الجزيرة والجنوب الايطالى ولكن فى عهد الأمير أحمد بن الحسن بن على حدثت معركة عظيمة بين الروم والمسلمين اندحر فيها الروم اندحاراً عظيما وخسروا المعركة وأسر المسلمون أعداداً كبيرة من الروم ولكن عظماء الروم سعوا إلى بلاد الخليفة الفاطمى بالقاهرة طلباً للصلح وكان من بين وفد الصلح الذى ذهب للقاهرة شقيق إحدى المقربات للخليفة (جاريات القصر) والتى كانت تعمل فى قصر الخليفة واستغل أخوها والذى كان أحد رجال الدين المسيحى موقعها من الخليفة واستطاع أن يحصل على مكاسب للنصارى ، وتم الصلح بين المسلمين والروم فى الجزيرة ، ولكن وقع المسلمون فى غلطة سياسية كبيرة كانت هى بداية النهاية لكى يتمكن النصارى من الجزيرة إذ بمقتضى هذا الصلح والذى كان قد تم فى ديوان الخليفة الفاطمى بالقاهرة يخلى المسلمين مدينتى رمطة وطبرين فى شرق الجزيرة للروم وعلى الرغم من مماطلة الأمير أحمد بن الحسن فى تنفيذ قرار الخليفة وقيامه بهدم المدينة وتسليمها أنقاض للنصارى إلا أن هذا كان بداية الاستقرار مرة أخرى للنصارى إذ استطاعوا بعد ذلك أن ينطلقوا من هذه الأماكن لمحاربة المسلمين ، وبعد ذلك استطاعوا أن يدحروا المسلمين بعد أن شغل هؤلاء بالخلافات المذهبية والعرقية فيما بينهم وبعد أن لعبت الفتن والدسائس لعبتها بين المسلمين وتفرق المسلمون شيعا وأحزابا وتطاحنو فيما بينهم على السلطة ، واستطاع الملك النورمانى « إدجار الأول » الزحف بقواته إلى الجزيرة وأن يأتى على حكم المسلمين بها ، وأن يقضى على نفوذهم السياسى بها ، وأن يقيم دولة النورمان بالجزيرة ، ولكن نفوذ المسلمين الحضارى والعلمى والثقافى استمر قائما بالجزيرة بعد ذلك أكثر من مائة واثنين وعشرين عاما أخرى كان المسلمون فيها هم أصحاب الكلمة العليا فى ديوان الملك ردجار الأول وابنه ردجار الثانى وكانوا هم قادة

الجيش والبحرية والأسطول ورؤساء البلاط الملكى واستمر نفوذهم وازداد وجودهم بل وزادت قوتهم ونفوذهم أكثر فى عهد الملك ردجار الثانى ، حتى أن بابا روما اتهمه بأنه قد اعتنق الاسلام وأنه صار موالى للمسلمين ولكن فى عهد الامبراطور فريدرك الثانى ، امبراطور ألمانيا وملك صقلية ، ازدادت حركة اضطهاد المسلمين ورفع بابا روما راية اضطهاد المسلمين وفكرة الحروب الصليبية ضد المسلمين وانتزاع بيت المقدس من أيديهم وإزاء ذلك أصبح المسلمون يغادرون الجزيرة جماعات وأفراد كلما وجدوا سبيلا للخروج فلم يبقى منهم هناك إلا القليل الذين يعيشون فى ذلة ومسكنة ، وجاء بعد فريدريك الثانى، الملك شارل دانجو فعمد إلى التخلص من المسلمين ، فأركب الكثير منهم إلى أفريقيا عام ١٢٩٢م بعد أن أقاموا بالجزيرة فترة تزيد عن ٤٢٦ سنة نشروا فيها لواء العدل والسلام والحضارة .

كيف استولى النورمان على الجزيرة :

أما عن النورماندين فإنهم وقفوا على الاضطرابات التى سادت صقلية واستغلوا فرصة الخلاف بين الرعية وحاكم الجزيرة وكانت فرصة ذهبية لهم لغزو الجزيرة والإستيلاء عليها واستمرت الحرب مستعرة بينهم وبين مسلمى صقلية مما اضطر المسلمون إلى التخلى عنها وقد بدأ الغزو النورماندى عام ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م وسقطت منسيا ثم سقطت بالرم ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، ثم سرقوسه ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥م وفى عام ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م تمكن روجر من السيطرة على جزيرة مالطة وفى العام التالى ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م استطاع روجر أن يستولى على باقى الجزيرة ، ولقد ظل المسلمون يقاتلون النورماندين فترة تزيد عن ٣٢ سنة .

ولقد نتج عن فتح النورماندين للجزيرة إن أصبحت السفن الأوربية التجارية الصادرة منها والواردة إليها تسير محملة بالبضائع فى البحر المتوسط آمنة من أى خطر يهددها من قبل المسلمين وذلك بعد أن جاءت نهاية السيادة الإسلامية على جزيرة صقلية فى أواخر القرن الحادى عشر على أيدى النورمان ، والنورمان غزاة جدد على أوربا منذ القرن التاسع الميلادى وقد تزعموا حركة الفتح فى جنوب إيطاليا

وصقلية وشجعهم على ذلك التنافس والانقسام بين مسلمي صقلية وقد تظاهر النورمان فى أول الأمر أنهم يعملون على إستعادة البلاد للبابا ، لكنهم كانوا فى حقيقة الأمر يسعون لتأسيس ملك سياسى لهم ، والواقع أن النورمان كانوا يتطلعون للاستيلاء على جزيرة صقليه لخصبها وثروتها ولضعف المسلمين بها إذا أن حكام الجزيرة المسلمين كانوا فى صراع وتنافس حتى أن أحد الأمراء المسلمين استعان بالنورمان فى صراعه الداخلى مع بعض أمراء المدن الأخرى وذلك مما سهل للنورمان مهمة فتح صقلية ورغم أن محاولة إعبور مضيق مسينا الفاصل بين الجزيرة وإيطاليا يعتبر مخاطرة كبرى لوجود الأسطول الإسلامى إلا أن النورمان نجحوا فى عام ١٠٦١ م فى الاستيلاء على مسينا ومن ثم وضعوا أقدامهم على الجزيرة ثم بعد ذلك أخذوا يتقدمون لفتح باقى أجزاء المدينة وقد تم لهم ما أرادوا .

ولقد خضعت جزيرة صقلية للمد الاسلامى فى فترة كانت القوى الاسلامية الأخرى فى العالم الاسلامى فى صراع وتنافس فيما بينها وهكذا كان الانقسام سببا فى ضياع أرض إسلامية كم كانت الأمة الإسلامية فى أشد الحاجة إليها لكى تتوسع بها رقعة العالم الإسلامى .

وبذلك طويت صفحة من صفحات النضال الإسلامى الطويل من أجل العقيدة الإسلاميـة ومن أجل نشرها فى جزيرة صقلية ولقد كانت الفتن والدسائس والأغراض الشخصية والخلافات المذهبية سبباً فى ضياع صقلية وفى ضياع غيرها من الجزر الإسلامية فى البحر المتوسط وكثير من الأراضى الإسلامية فى أوربا (الأندلس) جنوب فرنسا ، جنوب إيطاليا ، سويسرا .

الإسلام والثقافة العربية فى جزيرة كريت

لقد كان لانتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية أثر فعال فى تغيير مجرى الأحداث فى حوض البحر المتوسط إذ أن انطواء مدينة الإسكندرية بمصر تحت راية الإسلام فى ٢١ هـ / ٦٤١ م وانتشار الإسلام فى مصر وفى الأقطار الواقعة شرق البحر المتوسط ، سوريا وفلسطين وشمال أفريقيا ، قد خلق وعياً إسلامياً قوياً ورغبة فى نشر الرسالة المحمدية فى أرض جديدة فبعد أن استقر العرب والمسلمون فى هذه الأقطار ، كان عليهم أن يدافعوا عما كسبت أيديهم ، بعد أن تمكنوا من زمام البر وشواطىء البحر المتوسط ، كان لابد لهم من السيطرة على زمام البحر ولكن زمام البحر فى ذلك الوقت كان فى يد بيزنطة ولم يبده العرب أهمية بالبحر بادىء الأمر ، وإن كان معاوية بن أبى سفيان وإلى الشام قد أرسل للخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب ، يستأذنه القيام بغزو قبرص ولكن الخليفة عمر كتب إلى عمرو بن العاص والى مصر ، يسأله عن البحر وأحواله فرد واصفاً له البحر ومافيه ، وعدم معرفة العرب فى ذلك الوقت بفن القتال البحرى وبذلك لم يسمح عمر لمعاوية بالغزو فى البحر المتوسط ، ولكن العرب لم يدركوا عواقب الخطر البحرى إلا فى عام ٢٥ هـ / ٦٤٥ م عندما قام الأسطول البيزنطى بحملة بحرية قوية على شواطىء مصر واستطاعت هذه الحملة أن تسترد مدينة الإسكندرية من أيدى المسلمين ، وكان على المسلمين أن يناضلوا ويقاتلوا فى سبيل الله وفى سبيل إعلاء كلمته ، وفى سبيل إجلاء البيزنطيين . فقاتلا عنيفاً حتى يتم طرد البيزنطيين من الإسكندرية وتحرير الأراضى الإسلامية منهم ، وقد استطاعوا بما ملكوا من قوة الإيمان وعزيمة الرجال أن يتمكنوا من طرد البيزنطيين من مصر ، ومن هنا فقد وجد المسلمون أنفسهم فى حاجة للدفاع عن الفتوحات الإسلامية ولم يكن يتحقق ذلك إلا بالسيطرة على البحر .

وفى عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ، أعاد معاوية بن أبى سفيان ، طلب إنشاء الأسطول العربى الإسلامى والسماح للعرب والمسلمين بالتطوع فى الخدمة البحرية ، وبالموافقة على إنشاء الأسطول الإسلامى بدأت تدب حركة غير عادية

فى الموانى الإسلامية وذلك بالاستعداد لبناء السفن الحربية ، وتدريب العرب على فن القتال البحرى وذلك انطلاقاً من مبدأ نشر العقيدة الإسلامية السمحة فى كل بقاع الأرض المعمورة ، وتأمين الأراضى التى قوى فيها الإسلام ورسخت قواعدة وإيجاد قواعد أمامية فى عرض البحر المتوسط للانطلاق منها لغزو القارة الأوربية لنشر الدين الاسلامى بين أرجائها ، وكان أول عمل قام به الأسطول الاسلامى فى مياه البحر المتوسط هو الاستيلاء على جزيرة قبرص وذلك لتأمين الحماية للشواطىء السورية من الغارات المتوقعة من البيزنطيين وكانت أول حلقة فى سلسلة الانتصارات البحرية التى أحرزها العرب والمسلمون فى البحر المتوسط ، وبذلك ضمن المسلمون تأمين الشواطىء السورية من غارات البيزنطيين ، وبعد هذا النصر كان لابد من ضمان حماية الشواطىء المصرية ، وشواطىء شمال أفريقيا ، فبدأ التفكير فى غزو الجزر التى تواجه هذه الشواطىء وكانت كريت تواجه الشواطىء المصرية وصقلية تواجه شواطىء شمال القارة الافريقية .

ومن هنا فإن موضوع الإسلام والثقافة العربية فى جزيرة كريت هو صفحة مشرفة ونخر من تاريخ حافل بالأمجاد للأسلاف الذين فتحوا هذه الجزيرة ونشروا الاسلام بين أرجائها وسطروا بدمائهم الذكية أروع آيات التضحية والاستشهاد فى سبيل نشر رسالة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وفى رفع راية الإسلام فوقها والاستعداد لرفعها على كل القارة الأوربية ، فهم قوم قهروا فى سبيل الله وفى سبيل إعلاء كلمته ونصره دينه أعظم المالك بقوة إيمانهم ورسوخ عقيدتهم ومتانة سواعدهم وضربات سيوفهم وشدة شكيمتهم على كل معترض فى سبيل نشر الدين الاسلامى الحنيف ، فقد كان رائدهم فى فتح الجزيرة ، نكران الذات والتضحية بالنفس والاستشهاد فى سبيل الله ونصرة دينه وسأحاول فى هذه الدراسة إلقاء الضوء على النقاط الآتية :

أولا : محاولات الغزو للسيطرة على الجزيرة .

ثانيا : الغزو والاستقرار .

ثالثا : أهمية السيطرة على الجزيرة .

رابعـا : الحضارة الاسلامية بالجزيرة .

خامسا : انحسار المد الاسلامى عن الجزيرة وخروج المسلمين منها .

وكريت التى هى محور الدراسة أطلق العرب عليها اسم أقريطش بعد فتحها واستمر هذا الاسم مستخدما فترة طويلة ولـكن قلبت أقريطش إلى كريت ، (انظر أقريطش دائرة المعارف الاسلامية ، البلاذرى ، اقريطش ، فتوح البلدان ، ابن خلدون ، تاريخه) وهى أكبر جزر اليونان ٨٣٨٠كم، وتقع فى شرق البحر المتوسط على بعد نحو ٩٦ كيلو متر من بلاد اليونان عاصمتها كانيا تمتد نحو ٢٥٧ كم من الشرق للغرب وتعتبر الحد الجنوبى لبحر إيجه وأكبر مدنها كانديا وكريت جزيرة جبلية إلى درجة كبيرة ترتفع احوالى ٢٤٥٨م فى جنل ايدا ، من محصولها زيت الزيتون ، الفواكه ، الخضروات ، الـكروم ورغم أهمية كريت باعتبارها مركزاً تجارياً مام إلا أنهـا لم تلعب دوراً هاماً فى التاريخ السياسى لليونان القديمة .

اولا : محاولات الغزو والسيطرة على الجزيرة :

بعد أن قويت شوكة الأسطول الاسلامى على أثر هزيمة البيزنطيين فى معركة ذات الصوارى ، وظهور الاسطول الاسلامى بمظهر القوة أمام الأسطول البيزنطى بعد أن وضعت معركة ذات الصوارى حدا فاصلا لسياسة الروم البحرية إزاء العرب والمسلمين ، وبعد أن تم للعرب وضع أيديهم على جزيرة قبرص ، فـكروا فى السيطرة على جزيرة كريت وذلك لأهمية موقعها بالنسبة للأسطول العربى الاسلامى واستراتيجية نشر الاسلام فى وسط القارة الأوربية ، فهى تقع فى قلب البحر المتوسط ، وتتوسط القارات الثلاث أوربا ، آسيا ، أفريقيا ، وتكاد تتساوى فى البعد عنهما كما تعد نافذة لمـا يجاورها من ممالك فى هذا البحر ومقدمة للدفاع عن الشواطىء المصرية لأنها فى مقابلة الاسكندرية وذكرها ابن خلدون فقال أقريطش من جزر بحر الروم ما بين صقلية وقبرص وهى فى مقابلة مدينة الاسكندرية بمصر ، وهكذا فى خلافة الوليد بن عبد الملك أراد المسلمون أن يقوموا بغزو جزيرة بالقرب من القسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية فأقر

جنادة بن أبي أمية فتح جزيرة كريت (اقريطش) وذلك لقربها من عاصمة الدولة البيزنطية ففتح بعض أجزائها بعد قتال مرير مع البيزنطيين نظراً للاستحكامات والقلاع والحصون التي كان قد أقامها البيزنطيين بالجزيرة وذلك لأهمية الجزيرة لمن يسيطر عليها ولكنه عاد ولم يتمكن من إتمام فتحها ، بعد أن عرف فقط الضعف في وسائل الدفاع عنها وخبر مسالكها ورغم عدم تمكن المسلمون من السيطرة على الجزيرة إلا أنهم لم يغفلوا عن تحين الفرصة وإيجاد السبيل لفتحها ونشر راية الاسلام فوقها ، حتى جاءت الفرصة المواتية في خلافة هارون الرشيد والذي اتسعت الدولة الاسلامية في عهد اتساعا عظيما ورفرفت راية الاسلام على أجزاء من المعمورة لم تكن قد بلغتها من قبل ، وكان في عهده أن قام أحد قواد المسلمين الذين خبروا بحر الروم وهو حميد بن معتوق الهمذاني بغزو الجزيرة واستطاع أن يسيطر عليها ولكن هذه السيطرة كانت سيطرة وقتية إذ سرعان ما عاد الأسطول الاسلامي من حيث أتى ، ولم نعلم عن هذا العهد الذي سيطر فيه المسلمون على جزيرة كريت إلا القليل إذا لم يذكر أحد من كتاب المسلمين شيئا عن الفترة التي مكثها المسلمون في الجزيرة بعد سيطرتهم عليها وإن كانت غارات المسلمين والعرب لم تنقطع في عهد الخليفة هارون الرشيد بل تكاد تكون منتظمة سنويا في البر والبحر ولا سيما الإغارة على الجزر الواقعة في البحر المتوسط وعلى شواطىء أوربا الجنوبية المطلة على البحر المتوسط .

ثانيا : الغزو والاستقرار :

ولقد ظل الحال على ذلك حتى ولى المأمون الخلافة (١٩٨ — ٢١٨هـ/٨١٣ — ٨٣٣م) وفي عهده تم فتح هذه الجزيرة على يد قوم من مهاجري الأندلس ، ويعد دخول هؤلاء الأندلسيين جزيرة كريت وفتحهم لها واستقرارهم بها دليلا على نشاط الجماعات الاسلامية التي كانت تعمل في مياه البحر المتوسط ولكن ما أن طلع القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) حتى أخذت الأمور تتغير في حوض البحر المتوسط ، فقد فقدت بيزنطة سيطرتها على البحر وانكمش أسطولها أمام الأساطيل الاسلامية التي أخذت في الظهور في البحر المتوسط بل اخذت تقوى وتزداد قوتها ومنها أسطول مصر وسوريا وشمال أفريقيا والأندلس .

وقصة الفتح والاستقرار فى الجزيرة قصة طريفة كما ترويها كتب التاريخ الاسلامى وتبدأ القصة بأنه قامت فى الأندلس فى عهد الحكم بن هشام (١٨٠ — ٢٠٦هـ / ٧٩٦ — ٨٢٢م) المنتصر أمير الأندلس ثورة قام بها بعض العرب من أهل الربض والذى عرف هذا بالتمرد فيما بعد بالحكم الربضى بالقرب من قرطبة عام ١٩٨هـ — ٨١٦م ولكن الحكم هزم الثوار وفرق شملهم ثم أمر بديارهم فهدمت فخرج هؤلاء القوم إلى مختلف الأنحاء فهاجر بعضهم إلى المغرب ، ونزلوا بفاس وغيرها من مدن المغرب ووصل بعضهم إلى مصر وكان عدد الذين وصلوا إلى الديار المصرية خمسة عشرة ألف ما عدا النساء والأطفال ويظهر أن هؤلاء اللاجئين قد وصلوا بأسطولهم إلى مصر دون أن يعترض فى طريقهم أحد من البيزنطيين أو العباسيين، وبلغ أكثرهم مدينة الاسكندرية واستقروا بها ولم تقاوم مصر نزولهم بها وكان ذلك عام ١٩٩هـ ٨١٤م وتحالفوا مع قبيلة من عرب أفريقيا على حمايتهم إذا تمكنوا من المدينة واستقروا بها فترة من الزمن تقدرها كتب التاريخ بعشرة أعوام واتخذوها قاعدة لغاراتهم وحملاتهم على جزر البحر المتوسط وخاصة جزر بحر الارخبيل .

ولكن الظروف السياسية فى مصر تغيرت ، إذ قدم إليها عبد الله بن طاهر قائد الخليفة المأمون ليقمع ثورة قام بها سكان مصر ضد الخلافة العباسية ، وكان أهل الأندلس قد شاركوا فى تلك الثورة فطلب منهم قائد الخليفة المأمون الرحيل من الاسكندرية على أن يمدهم بالسفن اللازمة لهم وأن يسهل لهم الحصول على السلاح والمؤن والزاد وكل ما يلزم لهم على أن يتوجهوا للغزو فى سبيل الله وكسب أرض جديدة للاسلام لكى يستقروا بها . فصمم هؤلاء القوم على الخروج فى سبيل الله وعقدوا العزم على الوصول إلى جزيرة كريت وذلك لأن جماعة من عرب الأندلس ، كانت قد أغارت على الجزيرة قبل ذلك ببضعة أعوام واستولت على ناحية منها وأقامت بها ، وعلى هذا فلم يرى الأندلسيون خيرا من اللحاق بإخوانهم وافتتاح الجزيرة التى خبروا ثروتها وخصبها وعرفوا مسالكها فيما سبق من غاراتهم ، وكان هؤلاء القوم هم أول من اكتشف ضعف الدولة البيزنطية وعدم قدرة الأسطول البيزنطى على منازلة الأسطول الاسلامى .

وخرجوا من الإسكندرية فى ربيع أول ٢١٢ هـ ، خرجت هذه الجماعة الجرئية فى نحو عشرة آلاف مقاتل من مياه الاسكندرية فى نحو أربعين سفينة أظلتها راية الاسلام راية لا إله إلا الله . محمد رسول الله وخرجت للغزو فى سبيل الله والجهاد لنشر الدين الإسلامى الحنيف ذلك لأن هذه الجماعة المؤمنة بربها المقتدية برسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرجت نادرة نفسها للعمل على نشر الرسالة المحمدية وليس للسلب والنهب والحصول على الأسلاب والغنائم وأعمال القرصنة كما حاول أن يصور مؤرخى النصارى والمستشرقين جهاد المسلمين من أجـــل نشر عقيدتهم الإسلامية على أرض أوربا وإلا لما اختاروا هذه الجزيرة القريبة من القسطنطينية واختاروها للمصادمة مع الدولة البيزنطية ولو أنهم كانوا يريدون غير الغزو فى سبيل الله لذهبوا إلى بلاد المغرب مع إخوانهم الذين سبقوهم إلى هذه الديار ، أو ذهبوا إلى غيرها من البلاد الاسلامية دون أن يعرضوا أرواحهم للخطر وعلى هذا كانت غزوتهم لكريت . ومما تجدر الإشارة إليه أحداث قدوم الأندلسيين من الإسكندرية إلى كريت يرددها المؤرخون والكتاب المسلمون وحدهم أما المؤرخون الأوربيين فيذكرون أن فاتحى كريت أو أقريطش قدموا مباشرة من الأندلس أو صقلية إلى كريت دون الإشارة إلى رحيل الأندلسيين من الإسكندرية .

ولقد كانت هذه الغزوة الميمونة تحت قيادة جندى مسلم وبحار جريئ عرف بالشجاعة والإقدام هو أبو عمر حفص بن عيسى الأندلسى المعروف بالأقريطشى أبو البلوطى (أنظر دائرة المعارف الإسلامية) وتسمية الروايات البيزنطية أبو شايس ورست سفن الغزوة على شواطىء أقريطش وأنقض المسلمون على الجزيرة من كل النواحى ، ففرت الحامية البيزنطية من قلاعها وحصونها وتركوا أسلحتهم وعتادهم وارتاع السكان فلم يبدوا معارضة كبيرة ولم تستطع حكومة القسطنطينية أن تبعث بمدد حربى للجزيرة لانشغال الإمبراطور بقمع ثورة داخلية ولم يأت عام ٢٠٨ هـ/٨٢٥ م إلا وكانت الجزيرة قد رفرفت على كل أرجائها راية لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

وتروى الروايات التاريخية أن أبا حفص لما رست سفنه على شواطىء الجزيرة

أمر بإحراق السفن" وذلك لدفع القوم على التمسك بالأرض والاستقرار بالجزيرة مثلما فعل طارق بن زياد حينما غزا الأندلس والمجاهد محمد بن أبي الجوارى الذى خلف أسد بن الفرات فى قيادة الغزوة الإسلامية على جزيرة صقلية وقد قال لجنوده حينما احتجوا على هذا العمل فيم شكواكم ، لقد حملتكم للجهاد فى سبيل الله إلى أرض تفيض باللبن والشهد وهذه أرضكم فاستريحوا فى هذه الأرض ولا تفكروا فى العودة من حيث أتيتم ولقد رحب بهم أهل الجزيرة على اختلاف فئاتهم ، إلا أنهم كانوا حائفين على الدولة البيزنطية لتدخلها فى المسائل الدينية واضطهادها لهم ، ولذا اعتبروا الفتح العربى للجزيرة منقذاً لهم من الاضطهاد الدينى ، فلم يقاوموا العرب المسلمين الفاتحين لجزيرتهم ، واستقر المسلمون بالجزيرة وأقام لهم أبا حفص حصناً حصيناً أحاطوه بخندق عظيم عميق وأمنوا جوانبه ، ومن ذلك اليوم عرف المكان وماحوله باسم قنديا أو كاندى ، وظل الخندق ومن فيه مبعث رعب وفزع وظل يزعج عرش الامبراطورية البيزنطية طيلة قرن ونصف من الزمان ، وزاده قوة ماللجزيرة من موقع حربى ممتاز ، وقد ساعد هذا الموقع الحربى الممتاز على إلقاء الرعب بين سكان منطقة بحر إيجه كلها ، واستطاع العرب بما ملكوا من القدرة القتالية الفائقة أن يصبحوا سادة البحر المتوسط ، بل زاد النشاط التجارى للعرب بعد سيطرتهم على معظم شواطىء وجزر البحر المتوسط وخاصة جزيرة كريت والتى كان لسيطرة العرب عليها أثر قوى فى تقدم تجارة العرب وازدهار المدن السورية والمصرية .

ولقد ذكر ابن خلدون أن المسلمون قد سيطروا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه وملكوا سائر الجزر المتقطعة عن السواحل فيه مثل أقريطش وصقلية وغيرها من جزر البحر المتوسط ، وقال آدم متز فى كتاب الحضارة العربية لم يكن لأوربا خلال القرن العاشر الميلادى أى سلطان على البحر المتوسط فقد كان بحراً عربياً وقد نتج عن هذا الانتقال انتكاسات هامة على القوى البحرية فى البحر المتوسط نتيجة للسيطرة على جزيرة قبرص وكريت شرقا ومالطة وصقلية . فوحدة فى الوسط وجزر البليار وكورسيكا وسردينا غربا .

على أن العرب المسلمين لم يلقوا من المقاومة فى البحر المتوسط مايقابلهم

فأسطول بيزنطية كان قد دمر قبل غزو كريت بأعوام وسكان الجزيرة كانوا يكرهون سادتهم فى القسطنطينية ، وهكذا أصبحت كريت وغيرها من جزر البحر المتوسط قواعد أمامية استطاع المسلمون من خلالها مراقبة تحركات عدوهم والعمل على مد نفوذهم وسيطرتهم على القارة الأوربية .

ولم يكن الغرض من السيطرة الإسلامية على القارة الاوربية من أجل كسب مادى يسعون إليه أو رغبة فى السيطرة على الشعوب والتحكم فيها ، ولكن كان الهدف الذى سعى إليه المسلمون هو نشر الدين الإسلامى فى كل بقاع الارض ورفع راية لا إله إلا الله محمد رسول على قلب القارة الأوربية .

ثالثا : اهمية السيطرة على الجزيرة :

لقد بذلت بيزنطية جهوداً متواصلة ومتصلة لاسترداد الجزيرة من أيدى المسلمين ولكن هذه الحملات باءت جميعها بالفشل ، ويذكر أن حكام بيزنطة قاموا بأكثر من أربع حملات فى خلال عشرة أعوام ولكن المسلمين استطاعوا رد هذه الحملات الفاشلة بل قابلوها بغارات على سواحل ترايقة، وجزر السيكادير، بل أكثر من ذلك فإن المسلمون استطاعوا عام ٨٣٩ م أن يحرزوا نصراً حاسماً وعظيماً على بيزنطية حين تمكنوا من تدمير أسطولها على مقربة من جزيرة فاسوس وكان لهذا النصر الإسلامى أثراً قوياً على تقوية وتدعيم السيطرة الإسلامية فى حوض البحر المتوسط وهكذا أدت هذه المعركة البحرية إلى ذعر البيزنطيين وخافوا على عروشهم ، وتهديد البحرية الاسلامية لعاصمتهم البيزنطية لاسيما وقد يعمد حكام البلاد الإسلامية المطلة على البحر المتوسط إلى مساعدة إخوانهم مسلمى كريت ومدهم بالسلاح والمؤن والعتاد الحربى بل مدهم بالسفن الحربية ، فنجد الأمبراطور البيزنطى يجد فى تجهيز حملة بحرية ضخمة وذلك بعد أن عظم شأن الأسطول الاسلامى وأصبح مصدر قلق شديد للامبراطورية البيزنطيـــة وذلك لكى يستطيع اخضاع مسلمى كريت بعد أن شعر أهل كريت بالأمن والاستقرار فى ظل الحكم الاسلامى واستمروا على هذه الحالة حتى هاجم البيزنطيين الجزيرة سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م واستولوا عليها ، وكان مسلمى الجزيرة قد أصبحوا مصدر قلق

وخطر شديدين على كيان بيزنطة إلا أن التدابير المحكمة التى قام بها أهل كريت للوقيعة بين رجال البحرية البيزنطية وبين رجال البلاط البيزنطى حالت دون تحرك الأسطول البيزنطى من موانيه والاتجاه إلى جزيرة كريت .

وأيضاً فقد تعاون الأسطول الكريتى مع أسطول شمال أفريقيا وقاما بالهجوم المشترك على المراكز البيزنطية فى البحر التيرانى والأدرياتى وتم للاسطول الاستيلاء على التيرانى والادرياتى برنديزى فى جنوب شرق إيطاليا وبذلك فقد وضع المسلمون أيديهم على الأجزاء الجنوبية من أراضى القارة الأوربية ولكن بيزنطة والتى كانت مشغولة فى ذلك الوقت بمشاكل داخلية استنجدت بالبندقية التى دفعت فى المعركة بأسطول مكون من ستين سفينة حربية للدفاع عن هذا الإقليم الذى سقط فى أيدى المسلمين، ولكن هذا الأسطول حطمه المسلمون تماما ولم تنجوا منه إلا سفن قليلة ووقع أكثر رجاله أسرى وكان من نتائج انهزام البندقية استيلاء المسلمون على طارنت عام ٨٤١ م واستمر تعرض البحر التيرانى لغارات الأساطيل الإسلامية فترة طويلة ، وبدأت هذه الأساطيل غزواتها على مدينتى « أنكونا » أوزيرو » واستولوا فى طريق العودة إلى كريت على عدد من سفن البندقية التجارية العائدة بالتجارة من صقلية ، ثم عادوا الكرة فى العام التالى على شمال البحر الأدرياتى .

ولكن سادت منطقة بحر إيجه الهدوء فترة لم يتحرك فيها مسلمو كريت ضد النصارى إلا حركات طفيفة سواء فى البحر التيرانى أو البحر الأدرياتى بسبب ماحدث من صراع بين مسلمى كريت وبين الأغالبة حكام تونس وصقلية ويوضح الصراع السياسى بين أمير تونس الأغلبى وبين مسلمى كريت أثر تعرض أساطيل كريت لسفن تجارة الأغالبة مع الشرق على طريق التجارة الدائرية المارة بكريت وجنوب إيطاليا .

ولقد كان اعتراف حكام كريت المسلمين بالتبعية العباسية مما ساعد على جعل هذه الجزيرة بمثابة قاعدة بحرية هامة للأسطول الإسلامى فى شرق البحر المتوسط إذ عدت كريت تابعة لولاية مصر إدارياً ومن ثم صارت الإمدادات اللازمة تصلها تباعاً من مصر والشام وفى نفس الوقت عمل مسلمى كريت على تكوين وحدات بحرية

جديدة لهم ولذا لم يغفل البيزنطيين عن هذا الخطر الذى أحاط بهم من أثر وقوع كريت فى أيدى المسلمين لذا عملوا على إعادة الجزيرة منهم فأنفذوا حملات عدة للسيطرة على الجزيرة ولكنها لم تسفر عن شيء بل إن المسلمين دعموا أنفسهم فى كريت فغزوا جزيرة « أيجيت » الواقعة فى بحر إيجه ، ولقد كشفت الحملات الكثيرة التى أرسلها البيزنطيين عن ثبات أقدام المسلمين بجزيرة كريت وضعف البحرية البيزنطية وبهذه الانتصارات فترة طويلة ضمن المسلمين البقـــاء بالجزيرة فترة طويلة إزاء هذا صارت القوات البحرية الاسلامية تهدد الروم وأساطيلهم فى شرق البحر المتوسط وقامت البحرية الإسلامية بغارات تخريبية على جزر بحر إيجه وعمل المسلمون على تدعيم قواتهم البحرية وقد تعاونت الأساطيل البحرية الإسلامية الكريتية والمصرية والسورية فى الحملة التى هاجمت سالونيك .

وقد استغلت بيزنطة الصراع الدائر بين مسلمى كريت وحكام تونس وصقلية فقامت بتوجيه أسطول ضخم ظفر بالأسطول الإسلامى الكريتى وأخذه على غرة فى خليج كريت واستطاع بهذه المباغته الخادعة أن يحطم معظم سفن الاسطول الكريتى ، وكان من أثر ذلك أن استقر السلام فى بحر إيجه مدة تزيد عن عشرين عام ، وظلت عواصف الحرب والإغارة ساكنة حتى عام ٩١١م ولكن فى هدوء العاصفة يستجمع مسلمى كريت وغيرهم من المسلمين قواهم ويرفعون شعار الجهاد والاستشهاد ويستعدون للحرب من جديد ولتوجيه أقصى ضرباتهم على الإطلاق للامبراطورية البيزنطية ، فقاموا بغارة واسعة النطاق على مدينة سالونيك وهى المدينة الثانية فى الامبراطورية ، وسارت قاذفات اللهب فى طليعة الأسطول مما جعل الغزو ناجحاً تماماً وأسر المسلمون فى هذه الغارة من سكان المدينة عدداً يتراوح بين ٢٢ ألف نسمة وخمسة وعشرون ألف ، اقتيدوا إلى مختلف الأقطار الإسلامية وذلك ليشد من عزم الدولة الاسلامية لمساعدة مسلمى كريت فى مواصلة جهادهم والكفاح ضد الامبراطورية البيزنطية والعمل على نشر دينهم فى أرجاء القارة الأوربية ، ولكن بيزنطه وقد عملت أن الحملة لم يكن ليكتب لها هذا النجاح الساحق إلا بمساعدة مصر وسوريا ، ولذا فقد عملت سراً على القيام بحملة بحرية وهجوم شامل وهذه المرة لا تكون الحملة ضد كريت ولكن يجب أن توجه إلى

دلتا النيل لأن أصحاب مصر كانوا على تحالف وثيق مع مسلمى كريت واستطاعت هذه الحملة أن تنهب مدينة دمياط واستولت على أسلحة كانت معدة لإرسالها إلى كريت ، ثم قامت بغارة أخرى على دلتا النيل ولايستبعد وأن تكون هذه الحملات البحرية على مصر قد تركت أثراً على كريت ذاتها فقد انصرف أهل كريت على إزعاج الأراضى البيزنطية ، مما دفع بيزنطة وقد أوجعتها عملية سالونيك وهزت قلب الامبراطورية ، فعزمت على القيام بحملة بحرية على كريت نفسها عام ٩١٠ م كان مصيرها الفشل وباتت كريت مرة أخرى مصدر قلق دائم يهدد كيان الامبراطورية البيزنطية .

على أن مسلمى كريت لم يناصبوا وحدهم بيزنطية العداء بحر إخلال تلك الحقبة وإن كانوا أشد أعدائها خطراً ولـكنهم كانوا أكثر المسلمين تصميماً على تقويض عرش بيزنطية ونشر الدين الاسلامى فى أرجائها ، وهذا التصميم هو الذى دفع العباسيين فى بغداد على التعاون مع مسلمى كريت بالإضافة إلى تعاون الأسطول المصرى والسورى ولهذا أمر الخليفة العباسى المعتصم ببناء أسطول مكون من أربعين سفينة ودفعه إلى بحر أيجه لمساعدة مسلمى كريت ولكن هذا الأسطول لم يصل إلى مسلمى كريت نظراً لتعرضه لعاصفة قوية ولم تصل منه إلا سبع سفن شاركت مسلمى كريت جهادهم ضد البيزنطيين .

ولـكن فى عام ٩٢٣ م ظفر قائد البحرية البيزنطية بإحدى فرق الأسطول الـكريتى على مقربه من جزيرة لمنوس فدمرها وأضعف هذا من قوة العرب والمسلمين فى بحر إيجه لمدة تزيد عن عشرين عاماً ، وبالرغم من الـكفاح الطويل والمرير الذى قامت به بيزنطه لسنوات طويلة دون بقاء الجزيرة ذات الموقع الاستراتيجى فى أيدى العرب والمسلمين إلا أن كل محاولاتها كانت تبوء بالفشل ويزداد تمسك المسلمين بالجزيرة ، وصفوة القول إنه كان لدخول المسلمين حوض البحر المتوسط وسيطرتهم على مياهه وجزره وتهديدهم شواطئه البيزنطية نتائج بعيدة المدى على مصائر الدول الأوربية التى تطل على حوض هذا البحر منذ أوائل القرن الثامن إلى نهاية القرن الحادى عشر الميلاديين .

رابعاً : الحضارة الاسلامية بالجزيرة :

بعد أن سيطر المسلمون على الجزيرة ، وأقاموا لهم عاصمة وعسكروا من حولها وأمنوا جوانبها وحصونها بالخندق وقد أطلق الغربيون على تلك العاصمة « قانديا أو كانديا » ولم يكتف المسلمون بإقامة عاصمة لهم ، وكيف وهم أصحاب الحضارة وقد خبروا فن البناء والعمارة بالأندلس ثم تذوقوا الفن الاسلامى فى مصر والتى أقاموا بها عشر سنوات قبل رحيلهم إلى كريت ، بل أنهم أقاموا المدن الداخلية حتى بلغ المدن الاسلامية التى ازدهرت فى كريت تسعة وعشرين مدينة ، وأنشأ الموانى واختاروا لها المواقع الحصينة لكى يحتمى بها الأسطول الاسلامى من الأسطول البيزنطى وكذلك للحماية من العواصف والغارات المفاجئة .

ولقد تقدم فن البناء والعمارة فى جزيرة كريت فكانت المبانى آية من آيات الفن العربى والاسلامى فهى مبانى ضخمة وعظيمة استخدمت فيها الفسيفساء والمزايكو وجملوها بالآيات القرآنية الجميلة وأكثروا من بناء القصور ذات الحدائق الغناء وبقدر اهتمامهم بالعمارة السكنية فإنهم اهتموا اهتماماً كبير بإنشاء وبناء المساجد الواسعة الرائعة ، بل وأكثروا من بنائها فى كل المدن والأحياء وورسوا علوم الدين الاسلامى ، واهتموا بها وبحفظ القرآن الكريم ، وأوقف الحكام عليها الأوقاف الخيرية وكيف وهم أصحاب الثروة الواسعة وأصحاب الأسطول التجارى العظيم الذى كان يجوب موانى البحر المتوسط وأنشأوا الكثير من الفنادق والحمامات وبلغت الحضارة العربية الاسلامية شأنا عظيما فى الجزيرة واتسع نطاق العمل بالنسبة للأسطول العربى الكريتى والذى عاد أثره على اقتصاد البلاد بالفائدة والمنفعة . واهتم الحكام بإدخال السكان المحليين فى الدين الاسلامى الحنيف وأقبل السكان على الدخول فى الدين الجديد أفواجاً وأقبلوا على حفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة العربية لغة القرآن التى انتشرت بين السكان بسرعة وغلب اللسان العربى على أكثر الأرجاء فى الجزيرة ، وحاول كل إنسان فى الجزيرة أن يتعلم لغة القرآن الكريم وأن يتحدث بها .

كذلك كان لانتعاش الحركة الاقتصادية فى الجزيرة أثر عظيم فى كثرة الأسواق

والحوانيت فى العاصمة قانديا وغيرها من المدن ووصلت إليها بضائع الصين والشرق الإسلامى والشمال الأفريقى والأندلس وساهمت كريت فى نقل بضائع الشرق إلى أوربا ومن هنا فإنه يمكن القول أن فترة الوجود العربى والاسلامى بالجزيرة كانت فترة ازدهار وتقدم للحضارة العربية الإسلامية بحيث بلغت الحضارة العربية شأنا عظيما من الرقى لم يقل شأنا عن الحضارة العربية الاسلامية فى غيرها من البلدان الإسلامية الأخرى التى كان فضلها لاينكر على الحضارة الأوربية فكريت ساهمت فى نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا كما ساهمت صقلية وجنوب فرنسا وجنوب إيطاليا والأندلس فى نقل التراث العربى الاسلامى إلى أوربا ، ولقد كانت المعاملة الطيبة من جانب العرب الفاتحين لأهل الجزيرة سبباً فى ازدهار الحضارة العربية الإسلامية فالتاريخ الإسلامى يعرف للعرب تسامحهم ويشهد بأنهم ما غزوا قوماً ليذلوهم ومافتحوا بلداً من البلاد الإسلامية إلا وعاملوا سكانه أحسن معاملة وذلك عملا على نشر الدين الإسلامى الحنيف بالحجة والإقناع وإذاء وكل هذا لم يجد سكان الجزيرة من النصارى غضاضة أو حرجاً من البقاء تحت الراية الإسلامية ، كذلك مما ساعد على انتشار الحضارة الإسلامية والثقافة العربية هو عمل العرب على الزواج من سكان الجزيرة فاتصلت الانتساب وتوثقت روابط الدم والقربى وأنصهر الجميع فى بوتقة الاسلام وعمت المساواة وسادت الناس علاقات من اود والتضامن أدت إلى انتعاش الحياة فى الجزيرة وإلى زيادة سكانها وعمل المسلمون من التجار والدعاة إلى النزوح للجزيرة بأعداد كبيرة وذلك لطبع البلاد بالطابع العربى الاسلامى .

خامساً : انحسار المد الاسلامى عن الجزيرة :

استخدم هنا لفظ انحسار وليس لفظ أنكسار الذى استخدم عند طرد المسلمين من صقلية ذلك لأنه لم يمضى زمن طويل على انحسار الاسلام عن كريت إلا وعاد إليها أقوى مما كان فى عهد الأتراك العثمانيين وقد توطدت وعاثمة ورسخت أركانه ، ولقد كان للغزوة التى قام بها الأسطول البيزنطى عام ٩٢٣ م ومباغته الأسطول العربى الكريتى رد فعل عند البيزنطيين إذ سرعان ماعاودهم الأمل فى استرداد الجزيرة من المسلمين فى عام ٩٤٩ م قاموا بحملة القضاء على المسلمين ،

إذ نجد الأمبراطور البيزنطى يبعث بحملة ضخمة للاستيلاء على العاصمة قانديا قلعة المسلمين العتيدة ولكن الحملة باءت بالفشل وبقيت كريت فى قبضة المسلمين وهكذا أثبت المسلمون أنهم أكثر تمسكا بإيمانهم واشد عداوة للكفار وأشد إصرار فى الدفاع عن دينهم الاسلامى وهكذا نجح العرب على قلتهم بفضل المسجون إيمانهم وشجاعتهم وصبرهم على الشدائد وحبهم للملاحة وميلهم للعمل على رد غارات البيزنطيين وبعد ذلك نظرت القسطنطينية إلى كريت فإذا تجارتها بائرة وأسواقها كاسدة بسبب نشاط أسطول العرب المسلمين الكريتى القوى ولذا عقد امبراطور بيزنطية عزمه على مهاجمة الأسطول الاسلامى فى كريت وذلك لأن الظروف فى العالم الاسلامى كانت تساعدة على القيام بعمل عسكرى ضدها ، فالصراع الدائر بين العباسيين فى بغداد والفاطميين فى القاهرة قد ترك أثره القوى على مسلمى كريت وأيضا سقوط قبرص فى أيدى البيزنطيين حال دون اتصال مسلمى كريت بإخوانهم مسلمى سوريا وعلى هذا فإنه لم يأت عام ٩٦٠ م إلا وكانت بيزنطة قد بعثت إلى الجزيرة القوية المؤمنة برسالة ربها العاملة على نشر دين الاسلام ، بأسطول ضخم من ٢٠٠٠ سفينة حربية ، ٢٢٦٠ سفينة تحمل المؤن والذخائر ، أى مايقرب من خمسة آلاف سفينة كل ذلك من أجل الجزيرة الصغيرة ويعتبر هذا أكبر أسطول تحشدة بيزنطة لحمله بحرية فى تاريخ البحرية البيزنطية وذلك لكى تضمن لنفسها نجاح الحملة ولخوفها من شدة مقاومة مسلمى كريت بل وأكثر من ذلك فقد أحتاطت بيزنطة من أى تدخل إسلامى فبعثت ببعض القطع من أسطولها إلى شرق البحر المتوسط لتحول دون وصول أى عون أو مدد يحتمل أن يتلقاة المسلمون فى الجزيرة من إخوانهم مسلمى سوريا أو مصر أو الشرق العربى عامة ، وحملت الأساطيل البيزنطية على « قانديا » العاصمة الاسلامية لكريت وكان يحكم كريت فى ذلك الوقت السلطان عبد العزيز (أنظر دائرة المعارف الاسلامية مادة كريت) وهو آخر أعقاب أبو حفص الاقريطش فاتح الجزيرة والتى انطوت تحت لواء الاسلام من ٨١٥ - ٩٦١ م فلقى البيزنطيين مقاومة لم يرى قائد الحملة البيزنطية مثيلا لها من قبل وشاء القدر أن تسقط الجزيرة فى ٣٥ م / ١٧ مايو ٩٦١ م ويضع البيزنطيين أيديهم على ماتوافر فيها من ثروات ضخمة وحضارة إسلامية متقدمة زاهرة أقامها المسلمون

بجهودهم المتواصلة المتصلة وأخذوا السلطان عبد العزيز معهـــم أسيراً إلى القسطنطينية حيث مات هناك .

وبما للنصارى من بغض وكراهية وحقد على الدين الاسلامى نجدهم يعملون على القضاء على كل أثر إسلامى بالجزيرة فخربوا الديار وهدموا كافة معالم الحضارة الاسلامية بالجزيرة ولم يبقى بالجزيرة كلها إلا أقلية من المسلمين تعيش خارج العاصمة قانديا وهؤلاء أصبحوا مغلوبى الارادة ومسلوبى الحول والقوة بل وأن كثير من المسلمين رفض التعاون معهم وفقا لمخططهم وليس أدل على إحساس المسلمين بالمرارة على ضياع الجزيرة من أيدى المسلمين إلا ماكتبه ابن خلدون فقال « لقد خرج المسلمون من الجزيرة والله سبحانه وتعالى يعيد الكرة ويذهب آثار الكثرة » وأيضا ما كتبه الادريسى بعد أن سيطر النصارى على جزيرة أقريطش من المسلمين فإنهم عملوا على تنصير المسلمين ولكن هؤلاء أبت عليهم عزتهم وإسلامهم ففر منهم الكثير ناجيا بدينه وكتب الله لهم النجاة « وحقت كلمة العذاب على الكافرين والله غالب على أمره » ومن بقى من المسلمين فى الجزيرة قاوم تلك العملية بكل شدة وإخلاص للدين الاسلامى الحنيف عقيدته وعقيدة آبائه وأجداده الذين فتحوا الجزيرة ونشروا الإسلام وحضارته بين ربوعها وكان على رأس هؤلاء رجل قوى الإيمان ثابت العقيدة متمسكا بإيمانه إلى أقصى حد ويدعى الحودى ، وقال عنه النصارى أبادهم الله أنهم يزعجون لو أن هذا الرجل تنصر مابقى رجل مسلم إلا وفعل فعلته اتباعا له ولكن الله تكفل بعصمتهم جميعا ونجاهم بما هم فيهم بفضله وكرمه وهاجرت جموعهم تاركة أرض الأجداد إلى مصر وبلاد الشام ، بعد أن بقى الاسلام فيها أربعة أجيال متوالية .

وهكذا فقدت العروبة والاسلام أرضا كم تمنيت أن تكون هذه الأرض اليوم أرضا إسلامية وداراً للعروبة ، وبهذا طويت صفحة من صفحات الكفاح الطويل من أجل نشر الدين الاسلامى الحنيف والله يعيد الكرة ويذهب آثار الكفر .

الاسلام فى عهد الاتراك العثمانيين :

لقد هاجم الفاطميون الجزيرة عام ١٠٣٠م ولكن موجة الفتح لم تبدأ إلا على يد العثمانيين فى القرن الرابع عشر الميلادى وقد تم فتحها عام ١٦٤٥م

وبقى للبندقية مركزا بالجزيرة لم يستولى عليه إلا عام ١٧١٥م فى عهد السلطان أحمد الثالث وأخذت هذه الأراضى من جمهورية البندقية وقد احتلت اليونان الجزيره عام ١٩٢٢م ولكنها ألحقت بالدولة المصرية فى عهد محمد على عام ١٨٢٤ م وبقيت فى يد مصر حتى عام ١٨٤٠ حيث أعيدت للدولة العثمانية مرة ثانية ولكن وفى عام ١٨٩٨ م انسحبت تركيا منها بعـــد أن استقلت الجزير ولكنها أنضمت لليونان عام ١٩١٣ م وقد أجبر اليونان والمسلمين على الهجرة من الجزيرة كما أنها أخرجت مسلمى كريت من الجزيرة بالقوة على الرغم من أنهم يونانيون أصلا ولغة ولم تكتفى اليونان بذلك بل أرسلت جيشاً عام ١٨٩٧م قام بذبح المسلمين الذين من أهل الجزيرة وعلى الرغم من أنه عندما ضمت الجزيرة لليونان عام ١٩١٣م فإن الحلفاء أوصو بضمان حقوق الأقلية الاسلامية ولكن هذا لم يمنع اليونان من طرد البقية الباقية من المسلمين منها .

وهكذا ضاع الإسلام من كريت بسبب الغفلة الاسلامية وبسبب تعصب المسيحين وإضطهادهم للمسلمين .

الاسلام والثقافة العربية فى جزيرة مالطة

لقد كان المد الاسلامى فى البحر المتوسط ونشر دين الاسلام فى القارة الأوربية يقتضى ضرورة سيطرة الأسطول الاسلامى على كل الجزر الواقعة فى البحر الأبيض المتوسط سواء كانت هذه الجزر كبيرة أو صغيرة وذلك لتأمين الحماية الكافية للأسطول ودرأ لخطر الأسطول البيزنطى وإيجادقواعد للأسطول الاسلامى يستطيع منها أن ترسى بها سفنه فى عرض البحر المتوسط لذا فإن الضرورة الملحة اقتضت السيطرة على جزيرة مالطة وذلك لتأمين وصول الأسطول الإسلامى إلى صقلية.

وجزيرة مالطة من جزر البحر المتوسط وهى أكبر جزيرة فى الأرخبيل المالطى المؤلف من جزيرة مالطة وجزر كومينو وكومينوتو ، وفلفو وإن كانت صغيرة المساحة بالنسبة وجزيرة كصقلية أو كريت أو سردانية إلا أنها تعتبر من المحطات الهامة فى البحر المتوسط وموقعها ذو أهمية عظيمة لمن يستطيع أن يسيطر عليها ويخضعها لنفوذه السياسى وتتميز مالطة ولواوحقها بحسن الموقع

حتى اعتبرت مفتاح البحر الأبيض المتوسط الشرقى فى العصور الوسطى وكذلك فى العصور الحديثة واسمها اليونانى ميليته وحرفها المسلمون إلى مالطة .

وقبل الغزو الإسلامى لها كانت شديدة الضرر على المسلمين فى البحر وكان يعظمها النصارى تعظيما بالغا وهى مركز هام من مراكزهم الاستراتيجية فى بحر الروم وبها وكلاء للامبراطور الرومى ، والمعروف عن تاريخها السابق للفتح الاسلامى أنها خضعت للفينقيين فى القرن السابع قبل الميلاد ثم للرومان عام ٢١٨م وظل الرومان بها عشرة قرون اعتنقت خلالها مالطة المسيحية ، ثم خضعت للوندال وللقوط الغربيين ثم استردها الامبراطور البيزنطى جنسيتان فصارت جزءا من الامبراطورية البيزنطية وقد ذكر أحد الأسرى المسلمين الذين أسروا بها أن منازلها ذات زخارف عظيمة وحصونها غاية فى المتانة وأبراجها مشيدة على أحسن الطرز العسكرية وبها من عدة الحرب الشىء الكثير وهى تبعد حوالى ٩٠ كيلو جنوب صقلية وعلى بعد ٢٩٠ كيلو متر من شاطىء تونس ومساحتها مايقرب من ٢٥٠ كيلو متر وقد أصبحت محطة هامة للأسطول الرومى فى البحر المتوسط بعد خضوعها لسيطرة الامبراطورية البيزنطية وهى حلقة وصل بين ممتلكاتهم فى الشرق ومطامعهم فى الغرب وأهلها من أصل سامى كنعانى من قديم الزمن ولغتهم عربية محرفة .

جهاد بنى الأغلب حكام تونس :

وكان حكام بنى الأغلب بعد أن استقرت لهم الأمور فى تونس ، قد عملوا على نشر الرسالة الاسلامية السمحة فى قلب القارة الأوربية وفى ذلك يذكر ابن الأثير فى كتاب الكامل عن حوادث عام ٢٢١هـ أن ابراهيم بن الأغلب أرسل أسطولا لغزو الجزائر وربما يكون المقصود بتلك الجزائر هو الأرخبيل الذى منه مالطة ولم يكن وهذا الغزو للجزيرة إلا لمجرد جس النبض ثم تعقبه بعد ذلك غزوة اسلامية للاستقرار والاستيلاء النهائى على الجزيرة وربما تكون مالطة قد دخلت فى حوزه المسلمين قبل عام ٨٠٠م ولا يستبعد أن يكون غزو الجزيرة قد تم قبل عام ٢٢٦هـ ذلك لأن أبا الأغلب ابراهيم كان قد غزا صقلية عام ٢٢١هـ واستولى عليها

وترك مالطة وهى أقرب إلى تونس من صقلية ولكن هناك أقوال تذكر أن فتح المسلمون لمالطة قد تم بعد استلائهم على جزيرة صقلية ويستدلون على ذلك أن الفتح النهائى لمالطة قد تم بعد فتح صقلية بمدة طويلة وذلك لان حكام بنى الأغلب بعد أن تدعم وضعهم فى صقلية، رأوا أن مالطة تشكل خطراً على تحرك الأسطول الإسلامى من تونس إلى صقلية ، وبالعكس فاستقر الرأى على ضرورة إخضاع مالطة للمد الإسلامى وإطوائها تحت الراية الإسلامية راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وضمها لدولة الإسلام الكبرى بعد أن تبين لهم أن الأسطول البيزنطى يتخذ منها ملجأ لأسطوله ومركزاً من مراكز تموينه فى البحر المتوسط .

ثانياً : الغزو والاستقرار :

ولقد سنحت الفرصة للمسلمين فى عهد والى صقلية الأمير خفاجة بن سفيان الذى ولى أمر الجزيرة صقلية من قبل بنى الأغلب فى جمادى الأولى ٢٤٧ هـ ، ٨٦٢ م والذى كان رجلا متديناً بارعاً فى السياسة والحرب ، عاملا على قطع آمال الروم وآمال سائر النصارى فى إعادة جزيرة صقلية إلى حوزتهم مرة أخرى ، بل أكثر من ذلك عاملا على مد الفتوحات الإسلامية إلى كل أوربا والاستيلاء على البر الكبير (إيطاليا) وتدعيم نفوذ الأسطول الإسلامى فى البحر المتوسط وكان إن صمم على إخضاع مالطة للمد الإسلامى إلا إنه رأى أنه لا يمكن إبعاد الخطر البيزنطى المسيحى عن صقلية وقطع آمالهم فيها إلا بإخضاع جزيرة مالطة لسلطان المسلمين فكان أن استشار الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد الذى وافقه وأمره بالفتح ، بل أمده بالأسطول والجند والعتاد لكى يستطيع أن يدرأ الخطر الرومى ويسيطر على مالطة فى يسر وسهولة وعقد الأمير خفاجة بن سفيان لواء الحملة الإسلامية الميمونة للاستيلاء على مالطة إلى ابنه الأمير محمد بن خفاجة الذى كان عضداً قوياً لأبيه يقهر به شوكة الأعداء ويعاونه فى إدارة شئون الحكم وفى قيادة الحملات العسكرية الموجهة ضد النصارى .

سار الأمير محمد على رأس الأسطول الإسلامى الذى رفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والذى ضم خيرة المقاتلين الذين كانت قوة إيمانهم بالله وعزمهم

على قهر الأعداء ونشر الدين الإسلامى فى كل بقعة يقطنها بشر ولأجل تقويض نفوذ الدولة البيزنطية، وقد استطاع الأمير أن يرسى بسفنه وينزل جنده ، بعد أن استطاع أن يهدم قلاعها ، ويدك حصونها وأن يرفع راية لا إله إلا الله ، محمد رسول الله على أكبر حصونها واستطاع أن يدمر مقاومة الأسطول الرومى الذى كان يحمى شواطئها و راحلها وأن يضطره للفرار إلى عرض البحر بعد أن تحطمت أكثر سفنه .

ولقد جاء استيلاء الأغالبة على مالطة ولواحقها مكملا لحصارهم صقلية فضلا عن ربطها بالأمبراطورية الإسلامية فقد أضحت جميع الجزر فى تلك المنطقة الوسطى فى حوض البحر المتوسط فى أيدى المسلمين ومن ثم تأكدت سيطرة المسلمين على المضايق الواقعة بين صقلية وأفريقية .

وهناك فى الجزيرة وجد المسلمون أنفسهم بين قوم كادوا يكونون من أصلهم وذويهم ولقد رحب سكان الجزيرة بالعرب الفاتحين وأحسوا أن الفتح الإسلامى قد خلصهم فى نير الحكم الرومانى واضطهاده الدينى لهم ، ولكن الامبراطور الرومانى وقد هاله هذا النصر السريع والحاسم للمسلمين فى مالطة وأحس بالكارثة التى أصابت الروم بفقدها أهم مركز من مراكزها الاستراتيجية فى البحر المتوسط، فرأى أن يعمل على إعادة الجزيرة من أيدى المسلمين ، فأرسل أسطولا ضخماً يتكون من ثلاثين سفينة حربية غير سفن الامتداد والتى كانت تحمل المؤن والأسلحة وجاء الأسطول الرومى فى العام التالى ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م يتباهى بقوته وعدته وعظمته واستطاع أن ينصب الحصار حول مالطة محاولا بهذا الحصار أن يمنع العون الإسلامى للجزيرة سواء من صقلية ، ومن تونس أو غيرها من سفن الأسطول الإسلامى الأخرى (الأندلس — كريت — مصر) والتى كانت تجوب البحر المتوسط وتسيطر عليه، وأخذ الأسطول الرومى يسعد لإنزال جنده إلى الجزيرة حتى يرفع فوق ترابها راية القسطنطينية بعد أن أسقطتها القوات الإسلامية من فوقها وفوق غيرها من الأراضى والجزر فى البحر المتوسط .

ولكن ما أن علم الأمير خفاجه وإبنه الأمير محمد بتحرك الأسطول البيزنطى

وقرب أحكامه الحصار حول مالطة حتى قاما بجمع سفن الأسطول الصقلي وسار برجاله لنجدة الجزيرة المحاصرة ولفك الحصار من حولها ولمنع راية القسطنطينية أن ترفع مرة أخرى فوق مالطة ، ولما علم الروم أنهم مالقوا أسطول قوى عدة رجاله قوة إيمانهم ارتدوا أمامه خاسرين ولقد ألقى الله الرعب فى قلوب الروم ، فلم يكد رجال الأسطول الرومى أن يشاهدوا سفن المسلمين قادمة نحوهم حتى فروا بسفنهم نحو الشرق ، وهكذا مكن الله لراية الإسلام أن تعلو وللشريعة الإسلامية السمحة أن ترفع فوق أرض مالطة .

وقد ذكر أحد مؤرخى العرب هذه الغزوة قائلا أن الله قد قذف فى قلوب الكفار الرعب ، فلم يكد أحد يقف فى وجه المسلمين إلا لطلب الأمان ، ولم يزل المسلمون يتقدمون فى الجزيرة ويؤمنون العباد إلى أن تم لهم السيطرة على كل الجزيرة .

ولما خضعت مالطة لحكم أمراء صقلية وأصبحت ولاية تابعة لحكمهم منذ عام ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م فقد عمل هؤلاء الحكام على تهجير القوم من تونس وغيرها من بلاد المغرب العربى وفتح أبوابها أمام المسلمين من كل البلاد وذلك تثبتاً لأقدام المسلمين بها وعملا على صبغها بالصبغة الإسلامية العربية ، وقد قام هؤلاء المهاجرين الجدد بالاختلاط بالسكان المحليين الذين لم يشعروا بالغربة بينهم ، بل عملوا على مصاهرتهم ، ونشر الدين الإسلامى الحنيف بينهم ، وقد أبدى هؤلاء ترحيباً بالإسلام ودخلوا فى دين الله أفواجا ، وساعدوا العرب والمسلمين على إقامة المدن والحصون والقلاع وعلى بناء المساجد فى كل مكان وجد فيه تجمع إسلامى وذلك لكى يؤدى المسلمين شعائر الصلاة وقراءة القرآن وتدريس العلوم الإسلامية بها .

وعلى الرغم من أن الجزيرة صغيرة وليس بها إلا خمسة نهيرات قصيرة وقليلة المياه ، إلا أن المسلمون قد عملوا على إصلاح أرضها وفلاحتها وأدخلوا بها كثيراً من الزراعات التى لم تكن معروفة من قبل والتى تتلائم وجو الجزيرة وأدخلوا بها بعض الصناعات وساعدوا على تعميرها ونشر حضارة الإسلام بين ربوعها ، وفى أثناء حكم بن الأغلب لصقلية كان أمير صقلية يرسل نائباً عنه لحكم

الجزيرة والذى كان يحكم باسم بنى الأغلب حكام تونس وقد استمر حكم بنى الأغلب لمالطة من عام ٨٦٩ — ٩٠٩ م .

حكم الفواطم للجزيرة :

ولكن لما قامت الدولة الفاطمية فى شمال أفريقيا واتخذت مدينة المهدية عاصمة لها ، وزالت دولة بنى الأغلب وظهرت على مسرح السياسية العربية الإسلامية الدولة الشيعية الفاطمية وعظمت مكانتها المهدية كمقر لحكم الفواطم منذ عام ٩٠٩ م وعلم بذلك أهل صقلية والتى كانت جزيرة مالطة تخضع لإدارة أميرها بانهيار دولة بنى الأغلب ، وقرار بن زيادة الله آخر سلاطينهم ، ثاروا على الأمير أحمد بن الحسين بن رباح وحبسوه وأعادوا للولاية عليهم على بن محمد بن أبو الفوارس وأرسلوا للمهدية يعلنون الإنضمام للدولة الفاطمية الفتية والقيام بأمرها فى حكم صقلية ومالطة . فصادق أبو عبيد الله المهدى على ذلك الوالى الجديد والذى نصبه أهل صقلية ومن ذلك التاريخ انتقلت مالطة إلى أيدى حكام الفواطم ولكن عندما توطدت أقدام أبو عبيد المهدى واستقرت له الأمور فى البلاد ، أرسل من ناحيته والياً على صقلية هو الحسن بن أبى خنزير وهو من زعماء كتامه من البربر ، الذين أيدوا الدعوة الشيعية الفاطمية ونصروها وكان قبل وصوله إلى صقلية قد عرج إلى مالطة لتثبيت أقدام الوالى الشيعى عليها ومن ذلك التاريخ صارت مالطة فى كل أمورها تدار عن طريق والى هو نائب أمير صقلية الذى يعينه الخليفة الشيعى من المهدية ثم بعد ذلك من القاهرة بعد انتقال الخلافة الفاطمية لها واستمر الحكم الفاطمى للجزيرة من ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م إلى ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م .

ولقد كان مقام المسلمين بمالطة أطول من مقامهم بجزيرة صقلية ذلك لأنه لما سقطت صقلية فى أيدى النورمان لم تبقى إلا مالطة وقوصرة تحميان شواطىء أفريقية فأرسل كونت روجر عام ١٠٩١ م أسطولا إلى مالطة أجبر حكامها المسلمين على الاعتراف بالسيادة النورماندية وظل المسلمون فى مالطة رغم تبعيتها السياسية للنورمان كذلك استولى النورمان على جزيرة قوصرة ولم يكتفى النورمان بإزالة سلطان المسلمين عن هذه الجزيرة بل حاولوا الاعتداء على مدينة المهدية وذلك لأن

حدجار عندما استولى على صقلية سقطت مالطة وأصبحت بدورها تابعة للنورمان ، بعد أن كانت قد خضعت لحكم المسلمين فترة تقدرها المصادر العربية بأكثر من مائتين وعشرين عاما وهكذا فإن الإسلام فى تلك الفترة كان قد رسخت دعائمه وتوطدت أركانه وازدهرت حضارته وأينعت بفعل التعاليم الإسلامية السمحة والشريعة الغراء الخالدة .

ولقد ظل المسلمون يقيمون فى مالطة بعد خضوعها لحكم النورمان شأن إخوانهم الذين ظلوا فى صقلية حتى عام ١٢٤٩ عندما ظهرت حركة اضطهاد المسلمين ، فاضطر هؤلاء للهجرة فراراً بدينهم الإسلامى إلى شمال أفريقيا وغيرها من البلاد الإسلامية الأخرى .

الثقافة الاسلامية بالجزيرة :

لقد ترك الإسلام والعروبة أثرهما الواضح والقوى على سكان الجزيرة وعلى لغة أهلها ، حتى أننا نجد أن لغة أهل مالطة كما يقول ذلك المؤرخون أنها لغة عربية وقال آخرون أن أكثر كلماتها عربية وقالوا آخرون أن لهجة سكانها لهجة عربية تونسية ، ولكن نجد أن اللغة العربية قد ثبتت دعائمها فى مالطة برغم انقراضها صقلية وسردينة والأندلس وجنوب فرنسا وجنوب إيطاليا وجميع البلدان الأوربية التى خضعت للمد والسيادة الإسلامية وذلك لأن أهل هذه الجزيرة كانوا من أهل كنعان ، وأن لغتهم الأصلية هى اللغة الفينيقية والتى هى أخت اللغة العربية ، لذا فلما جاءتهم اللغة العربية بعد فتح الإسلام للجزيرة كانت كأنها نزلت فى وطنها وثبتت فيها ثبوت لم يزلزله خروج المسلمين فى مالطة كما ذهبت اللغة العربية من البلدان الأخرى ، ورغم أن أهل مالطة لغتهم عربية إلا أنه ليس بينهم من يحسن قراءتها أو التكلم بها بطلاقة ولكن بقاء اللغة العربية فى مالطة ولو بحرفة يدل على مالها فى قوة وتمكن عندما استطاعت أن تصل إلى أبنائها الحاليين عبر الأجيال وقد ظهر فى مالطة كثيراً فى الأدباء والشعراء وأهل الدين ، إذ نجد أن كتب التراجم التى تحدثت عن مؤلفات أهل الأندلس بها أسماء منسوبة إلى أهل مالطة وفى معجم البلدان لياقوت الحموى يذكر نقلا عن السلفى بقوله سمعت

أبا العباس أحمد بن طالوت البلنسى يقول سمعت أبا القاسم بن رمضان المالطى يقول كان القائد يحيى صاحب مالطة قد صنع له أحد المهندسين صورة تعرف بها أوقات النهار .

وكذلك نجد أن أهل مالطة يبدلون فى اللغة العربية الهاء إلى حاء وإن ما بقى عندهم من فصيح اللغة العربية قولهم دار نادية ونطقها دارنويه ، ولكنها أفصح من أقوال أهل الشام دارناطية كما يقول ذلك أحمد فارس الشدياق فى بحثه عن اللغة العربية فى مالطه ، ويقولون للداية القابلة وغيرها من الألفاظ الكثيرة التى ما زالت مستعملة هى ألفاظ يستخدمها أهل المغرب فى حديثهم وبهذا يرجح أن أصل المالطتين من المغاربة وإن اللغة المالطية لغة عربية ولكن هل هى فرع شامى أم مغربى فيها عبارات من كلتا اللهجتين ولكن الغالب عليها اللهجة المغربية .

وقد وجدت كثير من الكتابات العربية على شواهد المقابر فى مالطة فنجد مثلا شاهد قبر من قبورهم يقول فيه «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبى محمد وعلى آله وسلم تسليما ، لله العزة والبقاء ، ولكم فى رسول الله أسوة حسنة ، هذا قبر ميمونة بنت حسان بن على الهذلى بن عرس بن السوس توفيت لرحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان الكائن سنة ٥٦٩ هـ وهى تشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له وأن محمد عبده ورسوله» .

وهذا شاهد قبر آخر كتبت عليه «كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز» وغيرها من شواهد القبور الأخرى التى قام بجمعها المستشرق الإيطالى «أبسطورى روس» الذى يعد أعلم المستشرقين بأحوال مالطة فى العصر الإسلامى ورغم أن مالطه قد تعاقبت عليها دول متعددة وحاولوا أن يحملوا أهلها على التكلم والتحدث بلغاتهم فلم يتمكنوا من ذلك ، وبقوا محافظين على ما عندهم خلفاً عن خلف ويقال إن الذى تحصل عند أهل مالطه من اللغة العربية يزيد عن عشرة آلاف كلمة ولفظ .

هذا عن أثر اللغة العربية فى مالطة أما عن باقى الآثار الحضارية الإسلامية

الأخرى فى الجزيرة فهى لا تعد ولا تحصى فقد ترك المسلمون القلاع والحصون والأبراج والقصور وكل هذه المآثر تنطق بالفن الإسلامى الرائع بالإضافة إلى أن المسلمون قد عملوا على إدخال الحضارة الإسلامية بكل فروعها إلى الجزيرة ونقلوا أهلها من حياة الظلام إلى حياة المدنية والحضارة .

ومن هذا العرض فإنه يمكن القول أن الإسلام ذلك الدين القيم الخالد ولغته العزاء لم يكن مجرد موجة عابرة طافت بالجزيرة ثم انحسرت عنها ولكن كان حركة حضارية وتقدم وعمران ساهم بها المسلمون فى دفع أهالى الجزيرة إلى السير على درب الحضارة الإسلامية .

وبعد أن خرج الإسلام والمسلمين من الجزيرة فإنها لم تخضع على الإطلاق للمد الإسلامى ، ولم يعد للمسلمين بها كيان سياسى بعد ذلك اللهم إلا بعض الهجرات من أهل المغرب وخاصة تونس وليبيا وقد حصلت حكومة ليبيا على إذن من الحكومة المالطية ببناء مركز اسلامى فى العاصمة فاليتا وكذلك مسجد كبير منذ عام ١٩٧٤ م لكى يؤدى فيه المسلمون شعائرهم الدينية ولكى يعيدوا مجد الإسلام وحضارته إلى تلك الجزيرة ، وإن كان المسلمون يؤدون صلاة الجمعة والأعياد فى مكان مقبرة إسلامية قديمة بالجزيرة .